

من الشرق  
والعرب



بين آمو- داربا وجمنا

أرنولد توينبي  
ترجمة : حسين الحوت

الناشر  
الدار القومية للطباعة والنشر

مختارات  
الأذاعة

٥٧٤٦٦



سنۃ الشریعۃ والغریبۃ

بین آمنوہ دارِ اِبا وجمینا

أرسولہ <sup>صلی اللہ علیہ وسلم</sup> متوینبی



# مقدمة

هذا الكتاب وصف للاقليم الواقع بين نهري أمور — داريا وجنا . وقد جاء نتيجة لرحلة قمت بها في عام ١٩٦٠ مبدؤها ومنتهاها فيما بين هذين النهرين ولما كان النهران هما حدود رحاقي فقد جعلتهما عنوانا لهذا الكتاب .

ان نهري السند وجنا ينبعان من سهل واحد ، وليس في طبيعة الأرض ما يحدد خط تقسيم المياه بينهما على حين انك تجد خط التقسيم بين السند وامور داريا واضحا فهو سلسلة جبلية تغطي قممها الثلوج في معظم أيام السنة . وهي تبدأ بجبال هندوكوش وتنتهي بهضبة البامير .

ان الممرات الجبلية في جبال هندوكوش قليلة وليس في الإمكان مرور السيارات إلا في اثنين فقط من هذه الممرات وقد كان الانتقال عبر هذه الممرات منذ فجر التاريخ سيرا على الأقدام فاذا ما استطاع العابر أن يمتطي ظهر حمار فهو عابر محظوظ . وعلى كل فقد كانت هذه الممرات مغلقة في وجه الانسان والحيوان على السواء أربعة أو خمسة أشهر من كل عام . وطالما كان الانتقال فوق جبال هندوكوش ممتعا تكتفه الصباب فالاسم الحالي لهذه الجبال ( هندوكوش ) معناه « تهلك الهندود » . أما في الزمن القديم فقد اطلق عليه الاغريق عندما بلغوا هذه المنطقة في فتوحاتهم إسم بارويايتروس ومعناها : « أعلي من أن يخلق فيه النسر » . وقد علمت أن هذا السور الجبلي الهائل حائل دون انتقال سمك اللوت . فهذا السمك يعيش في المجارى المائية الواقعة في المناطق الشمالية الغربية ولكنه لم يستطع أن ينتقل إلى المجارى المائية الواقعة في المنحدرات الجنوبية الشرقية ولكن الانسان انتصر على الطبيعة حيث عجزت الاسماك فظل يعبر جبال هندوكوش ذهابا وحيثا منذ أقدم المصور كان يعبره

مسافراً ومهاجراً ولاجئاً وغازياً وتاجراً وحاجاً ومبشراً حتى لقد جعل الانسان من هذه المسالك الوعرة طريقاً معبداً . أما السرفيا تحمل الانسان من مشاق في عبور هذه الجبال فهو أنها تقع بين عالين لا يكف كل منهما عن محاولة الاتصال بالآخر .

جبال هندوكوش تقع بين شبه القارة الهندية وكتلة السياسة العظمى التي تتكون منها أوراسيا (أوربا وآسيا) . ومنذ أن بدأ الجنس البشري ينتشر على وجه الأرض — دأبت شعوب هذين الاقليمين على الاتصال ببعضها رغم ما يعرض طريقها من قسوة الطبيعة المتساهية وحتى اليوم تجد البدو الرحل ينتقلون عبر هذه الجبال مرتين في العالم هم واطفالهم ونساؤهم وحميرهم وجمالهم .

كذلك لم تكن جبال هندوكوش حازراً سياسياً ، ففي وقتنا الحاضر تقوم عليها وعلى جانبها مملكة أفغانستان ، وفي القرون الأولى من العصر المسيحي قامت فوقها امبراطورية كوشان التي امتدت بين نهري أمور داريا وجنا ولقد كانت كوشان إحدى الامبراطوريات الأربع الكبرى التي اقسمت العالم المنحضر فيما بينها حينذاك فقد قامت في منطقة وسط بين بارثيا في الغرب والصين في الشرق كما تبادلت التجارة مع الامبراطورية الرومانية عن طريق بحر العرب .

لقد كانت المنطقة الواقعة بين نهري أمور داريا وجنا مسرحاً لحوادث حاسمة في تاريخ البشرية . وهي لا تزال تسترعى انتباه المؤرخ . ولقد ظللت سنين عدة أنشوق لزيارة المنطقة ، حتى أتيت لي الفرصة في ١٩٦٠ .

أُسُولر توينبي

## ١ - مركز المواصلات في شرق العالم القديم

يدور على ألسنة الأوروبيين مثل يقول « كل الطرق تؤدي إلى روما » وهذا قول يبدو صحيحاً من وجهة النظر الأوروبية ، ولكن أوروبا ليست إلا تحملاً من تخوم العالم القديم . والأوضاع المتضاربة تؤدي إلى وجهات نظر متعارضة . ضع نفسك ، لافي أوروبا ، ولكن في العراق ، والعراق هو مركز « المعورة » طبقاً لمنطق التاريخ . من هذا الوضع المركزي تجد أن طرق العالم القديم تتخذ لونا جديداً ، ويصبح واضحاً أمامنا أن نصف طرق العالم تؤدي إلى حليب لا إلى روما ، وأن النصف الآخر يؤدي إلى بحرام عند السفح الجنوبي لجبال هند وكوش الوسطى حيث تتلاقى ثلاث طرق رئيسية .

ويبدو أن مدينة العالم القديم ظهرت في العراق منذ حوالي ٥٠٠٠ سنة ثم انتشرت من العراق شرقاً وغرباً . أما من ناحية الشرق فقد امتدت إلى فارس ( إيران ) وأفغانستان وشبه القارة الهند ، والباكستانية وآسيا الوسطى والشرقية . ومن ناحية الغرب امتدت إلى مصر والأناضول وجزر بحر إيجه وشمال غرب أفريقيا وأوروبا وروسيا . وانتشار المدينة بهذا الشكل من مهدا في العراق إلى أطراف الأرض ، جعل « المسكونة » كأنها دار هائلة تحوى عدة قصور . وهكذا أصبحت مدينة العالم القديم زوجية لا فردية ثم تتوقف إلى سلسلة من المدن الإقليمية تمتد من اليابان أقصى الشمال الشرقي إلى إيرلندا في أقصى الشمال ، ثم تنحدر موهلة إلى جنوب خط الاستواء عند جاوه . غير أن مراكز المواصلات التي نشأت على جانبي العراق لم تكن في علاقاتها مع بعضها البعض أو مع مركز المسكونة على مستوى واحد . ذلك ان اختلاف أوضاعها الجغرافية جعلها تنقسم إلى فئتين فأصبح بعضها أطرافاً وبعضها مراكز مواصلات فرعية . فالأطراف هي نهاية المسكونة وهي قد أخذت بنصيب مما ورد عليها من مركز المدينة ولكنها لم تستطع أن تنقله إلى ما وراءها - أما

المراكز الثانوية فهي التي أصبحت بدورها مراكز جديدة للمدينة تتجه إليها الطرق من الجهات الأربع وتخرج منها متشعبة في كل ناحية .

ومن الأمثلة القديمة للأطراف اليابان فهي في أقصى الركن الشمالي الشرقي . للمسكونة ، وجاوه في أقصى المنحنى الجنوبي ومراكش والجزر البريطانية واسكندنافيا في أقصى الركن الشمالي الغربي . اما المراكز الثانوية فيمثلها إقليمان يحفان بالعراق من الجانبين أحدهما سورياً ( بمفهومها الجغرافي الواسع ) فهي مركز المواصلات الغربي ، أما شمال شرق إيران ( أفغانستان حالياً ) فهي المركز الشرقي . ولقد كانت سوريا حلقة اتصال بين جنوب غرب آسيا ، وأفريقيا والأناضول وأوروبا ، أما أفغانستان فقد كانت حلقة اتصال بين جنوب غرب آسيا وشبه القارة الهندية الباكستانية وآسيا الوسطى الشرقية - وقد تؤدي تقلبات الزمن إلى تحويل الطرق إلى مركز مواصلات وبالعكس . فمثلاً أوروبا الغربية ظلت طرفاً طوال ١٧٠٠ سنة ، منذ أن أصبحت جزءاً من المسكونة في القرن الثالث قبل الميلاد . وفي خلال هذه القرون الطويلة كان المحيط الأطلنطي حاجزاً يحول دوان امتداد مدينة العالم القديم نحو الغرب غير أن سينيكاس - الشاعر الروماني الإسباني المولد كان قد تنبأ أن هذا الحاجز الطبيعي سوف يخضع لمشيئة الإنسان يوماً ما ، وقد تحققت نبوءته بعد ١٤٠٠ سنة ، ففي القرن الخامس عشر استطاع البرتغاليون صنع سفينة شراعية تبقى في عرض البحر شهوراً طويلة وهذا الاختراع بدوره أدى عاجلاً إلى سيطرة الشعوب الأوروبية على المحيطات وحول أوروبا إلى مركز عالمي رئيسي تخرج منه جميع المساعدة البحرية الهامة وتنتهي عنده هذه المساعدة . وقد أدى هذا الاختراع الجديد في وسائل المواصلات إلى انزواء سوريا وأفغانستان مؤقتاً لأن الثروة التي تدفقت على هذين المركزين الثانويين للمدينة جاءت عن طريق النقل البري على ظهور دواب الحمير مثل الحمار والحصان والجمال . ولما كانت قدرة الإنسان على الإبداع لا تقف عند حد فقد تطورت وسائل النقل إلى القاطرات والسيارات ثم الطائرات . والنقل الجوي بدوره أدى إلى زحزحة أوروبا من مركز التفوق العالمي وبدأ يبعد إلى سوريا وأفغانستان أهميتها القديمة .

ولقد قدر لهذين المركزين الثانويين تاريخ في المدينة ألا يصطدما بعواقب

النزاع على الحدود السياسية لاستعادة دورها التقليدي كمرکزین أساسيين للمواصلات العالمية بأسرع مما هما عليه الآن . ويلاحظ أن بيروت أصبحت في الوقت الحاضر من أهم الموانئ الجوية الدولية . وتحاول تدهار ان تصبح مثلها . أما عن النقل البري الميكانيكي . فإن مشروعات الطرق التي يقوم بها المهندسون الروس والأمريكيين في أفغانستان في الوقت الحاضر ، تبشر بعودة أفغانستان مرة ثانية لاحتلال مكاتها العالمية كطريق أساسي للنقل الدولي مثلما كانت قديما في عصر النقل على ظهور الحمير والجمال .

يقوم الروس الآن بشق طريق من تدهار إلى كوشكا نهاية الطرف الجنوبي لسكك حديد آسيا الوسطى السوفيتية — كذلك يقوم الأمريكيون بشق طريق من تدهار إلى شامان وهي نهاية الخط الحديدي الذي يسير بين كوتا والحدود الأفغانية الباكستانية .

وهناك طريق آخر ينشئه الروس من كابل عاصمة أفغانستان إلى قزل قلعة وهي ميناء نهري قاموا هم ببنائه لأفغانستان على الشاطئ الأفغاني لنهر آمو داريا والمقرر أن يمتد هذا الطريق إلى جبال هندوكوش بواسطة شق نفق تحت ممر سالونج وهو احد الممرات الثلاثة ( سالونج وشيار وخاداك ) التي تربط شبه القارة الهندية الباكستانية بآسيا الوسطى .

وفي غمرة المنافسة بين الروس والأمريكيين في أفغانستان يقوم الأمريكيون بانشاء طرق أخرى من كابل إلى طور خام وهي نهاية الخط الحديدي الباكستاني الذي يخترق ممر خيبر .

وهنا الطرق الحديدية من شأنها أن تعيد إلى أفغانستان مكاتها التقليدية العالمية . بل هي الثمرة التي تجنيها أفغانستان من تلك المنافسة المحتدمة بين امريكا والاتحاد السوفيتي . إنها ثمرة طيبة ولكنها تنطوي على خطر كبير ذلك أن ملتقى طرق المواصلات له أهميته الاستراتيجية في العالم بجانب قيمته الاقتصادية ، والأهميه الاستراتيجية تفرى بالأطماع السياسية .

ومما تقدم نرى أن أفغانستان أصبحت موضوعا شائقا يستهوى الدارس للشئون الدولية . وأهميتها الحاضرة للدارسين لا تقل عن أهميتها لدارس تاريخ الحضارة في العالم القديم منذ خمسة آلاف عام . فمثل هذا الدارس إذا تتبع خطوط التاريخ الرئيسية من اقتصادية ومياسية وقيية ودينية ودراسات للمجتمعات البشرية لاسترعى انتباهه خلال هذه الدراسة . ملتقى طرق المواصلات في القسمين الشرقي والغربي من العالم القديم .. وطالما كانت أفغانستان طريقا رئيسيا لمجرات الشعوب ولانتشار الحضارات والديانات بل كانت نقطة مركزية في بناء الإمبراطوريات .. وأن الدور الذي قامت به أفغانستان في كل من هذه النواحي بصفتها ملتقى للشعوب وخطوط المواصلات لهو دور كبير نحتاج إلى قائمة طويلة لسرد الأمثلة الدالة عليه .. ونكتفي هنا بإيراد بعض هذه الأمثلة :

لقد مرت بأفغانستان مواكب طويلة من الشعوب الرحل . وهي قادمة من آسيا الوسطى في طريقها إلى شبه القارة الهندية ، والباكستانية . فالأوريون الذين مروا بأفغانستان في النصف الأخير من الألف عام الثانية قبل الميلاد نقلوا إلى الهند اللغة السكسكويتية : وهم مؤسسوا الحضارة الهندية التي قضت على ما كان بالهند من حضارة سابقة للآرية والتي يمثلها في وادي السند بقايا موهنجو دارو وهارابا . ثم إن أفواجا من الغزاة الرحل الذين يتكلمون الإيرانية كانوا يحتلون حوض نهر هلمند وإقليم السنجاب في القرن السابع قبل الميلاد وهؤلاء بدورهم يجدر بنا أن نذكرهم لأن المؤرخ الإغريقي هيرودوت أطلق على إحدى قبائلهم اسم باكنيس ، ويغلب الظن أن سلالة هؤلاء هم الباختونيون أو الباتامنيون الذين يشغلون جانبا من أفغانستان وباكستان في الوقت الحاضر وإذا تحقق هذا تاريخيا فقد وضعنا أيدينا على حقيقة الأمر الذي استقر فيه أسلاف الباتانيين الحاليين في حوض نهر هلمند .

كذلك غزا الساكا وهو فوج آخر من الشعوب التي تتكلم الإيرانية بلاد أفغانستان في القرن الثاني قبل الميلاد ، واستقرت بعض قبائلهم في حوض نهر هلمند ويستدل على ذلك باسم سيتان أو سجستان وهو اسم الذي يحمله الإقليم حتى اليوم بدلا من اسمه القديم وهو سارانجيا .

واوغل بعض هذه القبائل الإيرانية في شبه القارة الهندية ولا تزال دماؤهم  
وبعض طبائعهم تجري في عروق المهرات الذين يقطنون حاليا في المناطق المرسومة  
فيما وراء بومباي

ومن أفواج الرحل الذين هجروا آسيا الوسطى في أثر الساكا جماعات  
اليوشى فقد استقر هؤلاء في المنطقة الواقعة بين نهر آمورداريا وجيل هندوكوش  
وكانت تعرف من قبل باسم بقطريا وهي اليوم جزء من أفغانستان . وفي القرن  
الأول من العصر المسيحي نجحت إحدى قبائل اليوشى ، وهي قبيلة الكوشان  
في تأسيس امبراطورية ضمت داخل حدودها جيل هندوكوش وامتدت من  
الشاطئ الجنوبي لنهر آمورداريا حتى الشاطئ الغربي لهر جنا . وفي خلال  
التسعة عشر قرنا الماضية تعاقبت الآلهة والديانات على الامبراطورية الكوشانية ،  
فقد حكم هذه المنطقة في القرن الحادى عشر « محمود الرنوى » مؤسس الدولة  
القرنوية ، وهو من أصل تركي ، كما حكمها في القرن الثامن عشر « أحمد شاه  
عبدلى » وهو من أصل أفغاني .

وفي القرن الخامس الميلادى غزا فرع من قبائل الهون الهند عن طريق  
أفغانستان ، وفي نفس الوقت غادرت جماعات أخرى من الهون موطنها في آسيا  
الوسطى واتجهت غربا فغزت أوروبا . ورغم ما كان عليه الهون من وحشية  
وتزوع إلى التدمير ، فقد تفوق عليهم المغول الذين غزوا أفغانستان في القرن  
الثالث عشر ، كما غزوا جانبا كبيرا من أوراسيا ، ولم ينج من شرهم إلا الهند  
وأوروبا الغربية . وفي أوائل القرن السادس عشر تحرك شعب تركي آخر - وهو  
شعب الأوزبك - من أواسط سيبيريا ، واحتل شمال أفغانستان وما يسمى الآن  
بجمهورية أوزبكستان السوفيتية على الشاطئ المقابل من نهر آمورداريا . وقد  
فشل هؤلاء الأوزبك في عبور جيل هندوكوش ، ولكنهم من ناحية أخرى غيروا  
وجه التاريخ في شبه القارة الهندية ، ذلك أنهم دفعوا امامهم بقايا رجال تيمورلنك  
الذين كانوا من قبل حكاما لآسيا الوسطى . وهؤلاء التيموريون الفارون أسسوا  
امبراطورية المغول في الهند .

ولم تقف شعوب أفغانستان موقف المتفرج على هذه الهجرات التي مرت  
ببلادها ، بل ساهموا بنصيب في غزو الهند . فالغوريون الذين حلوا محل الترك  
القرنويين في القرن الثاني عشر الميلادي كانوا في الأصل من سكان المرتفعات  
الوسطى بأفغانستان . وقد وسعوا أملاك المسلمين في شمال الهند ، فامتدت من  
السند إلى حوض الكنج . وبعد وفاة بابر مؤسس دولة المغول في الهندستان ،  
تحدى خلفه شيرشاه سور وهو بنغالي مسلم من أصل أفغاني . وقد ظل حمايون  
ابن بابر مطروداً من البلاد طوال حكم شيرشاه .

وعلى الرغم من أن حكم شيرشاه في هندستان كان قصيراً ، إلا أنه استطاع  
تنظيم المواصلات الإمبراطورية كما نظم الضرائب . وكانت فظمه من الكمال بحيث  
واصل المغول استخدامها بعد عودتهم إلى حكم البلاد ، بل إن البريطانيين  
أنفسهم - وهم ورثة الحكم المغولي في الهند - طبقوا النظم التي وضعها شيرشاه .  
وفي عصر الفوضى في هندوستان حيث كان حكم المغول آخذاً في الانحلال ،  
ولم يكن الحكم البريطاني قد استقر في البلاد بعد ، اجتاحت أفواج من الأفغان  
بلاد الهند ، وهؤلاء هم المعروفون باسم « الروهيلدو » واستقروا فيها هو الآن  
ولاية أوتار برادش الهندية .

إن مثل هذه الهجرات التي تقوم بها الشعوب من وقت لآخر قد تغير مجرى  
التاريخ ، ولكن الأثر الأكبر يخلفه انتشار الحضارة والدين ، وقد كان للأفغان  
من كل منهما نصيب .

فعندما بسطت إمبراطورية الأخمينيين الفارسية سلطانها على أفغانستان  
وحوض السند في خلال القرن السادس قبل الميلاد وبعده أحضرت معها إلى هذه  
البلاد إحدى لغاتها الرسمية وهي الآرامية ، غير أن استخدام اللغة الآرامية كلغة  
تقاسم دولية لم يدم بعد أن قضى الاسكندر الأكبر على أول إمبراطورية فارسية .  
غير أنه قد اكتشف حديثاً في مدينة تمدهار كتابات بالإنجليزية والآرامية من  
عهد الإمبراطور الهندي أسوكا في القرن الثالث قبل الميلاد .

ولكن الأبجدية الآرامية أحرزت بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية -  
انتصارات متضائل بجانبها انتصارات جنكيز خان نفسه .

وقد ظلت الابدجية الآرامية تستعمل في غرب إيران تحت اسم جديد وهو البهلوية ، وما يجدر ذكره هنا أن هذه الابدجية الآرامية قد انتقلت عن طريق أفغانستان إلى شبه القارة الهندية في الجنوب ، كما انتقلت جهة الشمال الشرقى عبر قارة آسيا . وفي شمال غرب الهند أصبحت الابدجية الآرامية أصلاً للخاروشية التى استخدمت فى كتابة بعض اللهجات المتفرعة من استسكريتية وانتقلت الآرامية نحو الشمال الشرقى عبر نهر آمورداريا فاستخدمت فى كتابة اللغات الإيرانية فى آسيا الوسطى ، كما استخدمت فى كتابة الصفدية وهى إحدى اللغات التركية فى آسيا الوسطى ، وأخيراً استخدمت فى كتابة لغات المنول والمانشو .

وإن أردت التثبت من ذلك فما عليك إلا أن تزور « معبد السماء » الذى أقامه أباطرة المانشو فى بكين ، وهناك تجد كتابات بلغات ثلاث وهى الصينية وقد كتبت بالتمقوش الصينية ، ثم لغة المانشو والمغولية ، وقد كتبنا بالابدجية الآرامية .

وبعد أن انتهى الأغريق من القضاء على الامبراطورية الفارسية الأولى ، اتجهوا شرقاً حتى بلغوا منطقة باروبانيزاداي « منطقة جبال هندوكوش الحالية » وفى هذه المنطقة وضعوا بنور حضارتهم ، كما وضعوها فى إقليم بقطريا وفى المنطقة الواقعة بين جبال هندوكوش ونهر آمورداريا ، وقد استقرت المدينة اليونانية فى هذه المنطقة عدة قرون .

وحوالى عام ١٨٣ قبل الميلاد انتهز ديمتريوس ملك بقطريا الأغريقى فرصة سقوط إمبراطورية موريا فى الهند ، فعبّر جبال هندوكوش وغزا المنطقة التى يمثلها الآن جنوب أفغانستان والينجاب وقد ظل حكم الأغريق سائداً فى بقطريا أكثر من نصف قرن وفى المنطقة الواقعة جنوب هندوكوش طوال قرنين ، وشاهد ذلك اليوم النقود الأغريقية التى تحمل صورة الملك الأغريقى وعلى الرغم من انتهاء حكم الأغريق فى هذه المنطقة فقد بقيت حضارتهم هناك فترة أخرى . ذلك أن الكوشاتى - وقد أسسوا ملكاً عريضاً دام أكثر من عهد إمبراطورية الأغريق فى بقطريا - كانوا من عبي الماينية على الرغم من أنهم اتخذوا لغة بقطريا الإيرانية كلفة رسمية لامبراطوريتهم بدلا من الأغريقية ولكنهم كانوا يكتبون

لغتهم البقترانية بالابجدية الأغريقية . ويثبت ذلك اكتشاف آثار بقترانية بالحروف الأغريقية على معبد النار من عهد الامبراطور كانشكا الكوشاني في سرخ كوتل في الطريق إلى بلخ عبر ممرات جبال هندوكوش والآثار الفنية الباقية من مدرسة جاندهارا التي ازدهرت في عهد إمبراطورية كوشان في عواصم هذه الامبراطورية الثلاث وهي بجرام وبشاور وناكسيلا . ويبدو أن الفن الأغريقي خلف آثارا عميقة في مدرسة جاندهارا الكوشانية عن طريقين : أحدهما عبر جبال هندوكوش عن طريق بقطريا والآخر عبر المحيط الهندي قادما من الأسكندرية وما أن تأسست إمبراطورية كوشان في القرن الأول الميلادي ، حتى كان البحارة اليونانيون يطوون المحيط الهندي طيا متقلين إليه من الموانئ المصرية على البحر الأحمر . . . وعرف هؤلاء البحارة سر الرياح الموسمية فاستخدموها في الوصول رأساً إلى دلتا نهر السند بدلا من التزام ساحل بلاد العرب وبلوختان ، وكان تقصير المسافة الذي حققته مهارة الأغريق في الملاحة أكبر حافز لتنشيط التجارة بين وادي السند والنيل .

كذلك أعاد التاريخ نفسه في ملتقى طرق المواصلات في شرق العالم القديم بعد أن قضى العرب المسلمون على الامبراطورية الساسانية الفارسية في القرن السابع الميلادي . ذلك أن العرب - مثلهم في ذلك مثل الأغريق قبلهم بألف عام - ثبتوا أقدامهم في المنطقة الواقعة بين آمورداريا وجبال هندوكوش وهي المنطقة التي عرفت يوما باسم بقطريا . وكما فعل الأغريق من قبل فإن العرب شقوا طريقهم فوق جبال هندوكوش الوسطى وغزوا شبه القارة الهندية وكانت أفغانستان الممر الذي مر به المسلمون في طريقهم إلى الهند مثلما فعل الهلينيون « الأغريق » .

هكذا يرى القارئ أن كل تلك الموجات التي قامت بها الشعوب والامبراطوريات والحضارات والديانات التي ذكرناها في هذا الفصل ، كانت كلها حركات عبر أفغانستان إلى شبه القارة الهندية ومن أقاليم خارجية عن الهند . ولكن كان يقابل ذلك أيضا حركات خرجت من الهند إلى العالم الخارجي مارة بأفغانستان ومن أشد هذه ظهورا في تاريخ البشرية انتشار الديانة البوذية في شرق آسيا .

وعندما أصبحت الامبراطورية الفارسية الأولى نهياً للعتراحين علي هيكها  
المتهدم بعد موت الإسكندر ، كان بين هؤلاء شاندراجوبتا موريا الذي أسس  
امبراطورية هندية . بدأ شاندراجوبتا عمله بضم المناطق التي وقعت تحت حكم  
الأسكندر لفترة وجيزة في حوض السند . واتبع ذلك بادماج هذه المناطق في  
مملكة ماجادها في حوض الكنج . ثم وسع أملاكه غرباً بعقد اتفاق مع سليوقوس  
المقدوني « المظفر » وتنفيذاً للاتفاق سلم شاندراجوبتا إلى سليوقوس خمسمائة  
قبل أن يستخدمها في الحرب ضد خصمه الأغريقى العنيد انتيجونس « الأعور »  
وفي مقابل ذلك تنازل سليوقوس لشاندراجوبتا عن منطقة واسعة من أراضي  
فارس السابقة غرب السند ، وجنوب هندوكوش . هذا وأن الكتابة الأثرية  
التي اكتشفت حديثاً في تندهار ، والتي خلفها أسوكا حفيد شاندراجوبتا ، تدل  
على أن تندهار لا بد وأنها كانت تقع على الجانب الهندى لخط الحدود بين الأملاك  
المورية ( الهندية ) والأملاك السلوقية ( الأغريقية ) ، وقد كان ما حققه شاندراجوبتا  
من نجاح في تكوين إمبراطورية ذات أثر وقى ، فلم تمض علي تأسيسها مائة  
 وخمسون سنة حتى تمزقت وتوغل الأغريقى البقطريانيون في الهند إلى ما بعد  
حدود فتوحات الأسكندر . ولكن أملاك الهند امتدت خارج حدودها عندما  
اعتنق الامبراطور أسوكا حفيد شاندراجوبتا الديانة البوذية . وتدل بعض  
الكتابات الأثرية التي خلفها أسوكا على أنه أرسل عدداً من المبشرين لنشر البوذية  
في الدول التي أسسها القواد الأغريق على أنقاض الامبراطورية الفارسية . وليس  
لدينا ما يدل علي مدى الأثر الذي خلفه التبشير بالبوذية في العالم الملبقى ( الأغريقى )  
ولكن من المؤكد أن اعتناق أسوكا للبوذية ثبت أقدام هذه الديانة في الهند  
لسته قرون تلت . وقد كان لها من القوة ما مكنتها من أن تطوى تحت جناحها عدة  
موجات متتالية من الغزاة القادمين من وراء جبال هندوكوش بعد سقوط  
امبراطورية موريا ، فتجد ميناندر وهو من أمم حكام الأغريقى البقطريانيين في  
الهند خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، يظهر في الأسفار البوذية باعتبارها طرفاً  
في محاوره عنوانها « مناظرات ميليندا » ، وفي أواخر القرن الأول وأوائل

القرن الثاني الميلادي ، أصبح كانيشكا أعظم الأباطرة الكوشانيين نصيراً  
للبوذية ، ولو أنه لم يعتقها صراحة .

هكذا كانت امبراطورية كوشاني الطريق الرئيسي الذي سلكته البوذية  
في طريقها من الهند إلى ما يسمى الآن آسيا الوسطى السوفيتية وسينكيانج وشمال  
غرب الصين ، ثم إلى كوريا واليابان وفيتنام أما دور أفغانستان كمرکز اتصال  
في هذا الموضوع فهو أجل من أن يذكره .

إن هذا الطريق الذي سلكته البوذية من الهند إلى الصين عبر أفغانستان  
يبدو على الخريطة طريقاً دائرياً غاية للانتقال على جوانب التبت بدلاً من الانتقال  
رأساً من التبت إلى إقليم يوناني . جواب ذلك أن جنوب شرق آسيا الذي تشترك  
فيه الصين والهند في وقتنا الحاضر كان خارجاً عن نطاق العالم المتمدين ، وقتها  
كانت البوذية في طريقها إلى الانتشار في خارج الهند . وفي عصر الأمبراطور  
كانيشكا ، كانت الحضارة الهندية في بداية عهدها فيما يسمى الآن كبوديا وآنام .  
أما اليونان فلم تتخلص من حياة المهجبة وتندمج في الصين على أيدي  
الغزاة المغول إلا في القرن الثالث عشر الميلادي . وهكذا تجد أن الطريق بين  
الهند والصين عبر أفغانستان كان أقدم طرق الاتصال بين البلدين ولو أنه كان  
طويلاً ملتقاً . أن ما قدمنا للقارئ حتى الآن ليس إلا بعض مقتطفات لإيضاح  
الدور الذي لعبته أفغانستان بصفتها مركزاً للاتصال ، ولعلها كافية لكي تثبت  
لدارسي الموضوعات الإنسانية أن أفغانستان لا غنى عنها لاستكمال هذه الدراسة .

## ٢ - إلى نيودلهي بالنفثة

غادرت لندن الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، في طريقى إلى نيودلهي وفي وقت الظهر كانت الطائرة تمر فوق بحر أيونيا بين إيطاليا واليونان ، وعندما مرت الطائرة فوق مدينة بيرتا استعدت ذكريات الماضي البعيد ، في سنة ١٦٨ قبل الميلاد كانت أنباء النصر في المعارك تستغرق أسبوعين حتى تصل إلى روما ، أما اليوم فقد قطعنا المسافة بين روما وبيرتها في ساعة وعشرين دقيقة مرت طائرتنا فوق تراقيا ثم اسطنبول ثم طهران ثم أفغانستان وأخيراً وصلنا نيودلهي الساعة الحادية عشرة مساء بتوقيت لندن .

تحدث الشاعر اليوناني سوفوكليس عن صنعة الإنسان منذ خمسة وعشرين قرناً فقال :

« ان ما يصدر عن صنعة من مهارة يفوق خياله » ، ولم يكن الإنسان حينذاك قد اخترع حتى طاحونة الهواء ، واليوم يصدق قول سوفوكليس فإن تلك الآلة نقلتنا من لندن إلى نيودلهي في ١٣¼ ساعة ولكنى رغم ذلك لست قائماً بفن هذا الصانع الماهر ( الإنسان ) ولن أقنع حتى يخرج لنا آلة تنقلنا من لندن إلى نيودلهي في نهار واحد ، على أن يكون ذلك فوق سطح الأرض لا بين طيات السماء كما فعلت بنا النفثة . بل إنى أطمع من هذا الصانع الماهر في أن يمكننى من هذه الرحلة الطويلة سيراً على الأقدام لأرى كل ماتروق لى رؤيته في طريقى وأن أختم رحلتى وأنا مكتمل النشاط مثلاً بدأتها هناك ، هناك فقط ، أعرف بأن الإنسان حقاً صانع ماهر .

أن الانتقال السريع في الهواء ليس حلاً مرضياً ، فأشد ما كانت نفسي شوقاً قبل بدء الرحلة للاستماع بجبال يليون وأوسا وأوليغب ، وما يليها من أنوس ورودوب ، ولكن ما أن عبرنا خليج تراتو حتى رأيتنى فوق ساحل طويل

وبعد ما غمرنا ضباب كثيف حتى اقتربنا من مطار اسطنبول . لم أر شيئاً من اليونان ولا الأناضول ولا إيران ولا أفغانستان وماذا يعني من التحديق فوق بحيرة أورميا طالما أنني لم أرها ؟ .

لقد حجبت السحب عند ناظري نابلي وبركان فيزوق ومدينة بومبي التاريخية . وعند انتقالنا من مطار دلهي إلى المدينة مررت بسائق تلك العربات التي يجرها الثيران ، وهنا تساءلت . أليس هذا الرجل أسعد من حظاً حيث تتاح له الفرصة ليرى بنفسه كل شيء أثناء رحلته القصيرة ؟ ونصيحتي لكم أيها الفنيون أن تعملوا وتواصلوا العمل . فأنتم لا تزالون في البداية فإن استطعتم أن تجعلوني أستمع من الطائرة بمنظر العالم التي يستمتع بها سائق العربات والثيران فلكم مني أحسن تقدير . وأنا مستيق تحفظاتي على ما قاله سوفوكليس للإنسان من عبارات المدح والثناء حتى يحقق ما أصبو إليه .

## ٢ - ملتان

قد يفوق الواقع الخيال . تلك كانت مشاعري عندما وصلنا مدينة ملتان .  
لقد رأيت المدينة أمس فقط بعد تشوق لرؤياها لازمني خمسة وعشرين عاماً ، منذ  
أن قرأت مؤلف أدوارد الممتع عن حصار ملتان عام ١٨٤٨ كانت تدور في راسي  
خواطر عن مولراج السيخي حاكم ملتان ، وعن الداود بونزا حلفاء أدوارد  
والمسلمين ، وعبور أدوارد للسند وتكوين جيش بلا تدريب ، وأخيراً انهيار  
مولراج ونهايته . كل هذا كان يدور برأسي ، وهو جزء هام من التاريخ لأنه .  
المركة الثانية بين البريطانيين والسنج .

أن مولتان هي مدينة الماللي ، وهي المدينة التي جرح فيها الاسكندر الأكبر  
عندما كان يحاول هو وجنوده أن ينسفوها نفساً ، ثم انتقم جنده المقدونيون  
له أفضع انتقام .

لقد هاجم الاسكندر حصون المدينة ولم يهاجم المدينة نفسها ، وهذا هو سر  
الهيمنة ، فلقد وقفت بالأمس علي أعلى مرتفع في هذا الحصن وإذا بي أطل على  
منحدر شديد ترقد المدينة عند نهايته السفلى وفي وقتي هذه تذكرت الاسكندر  
والقائد الانجليزي أدوارد وما بينهما من عرب مسلمين وأتراك مسلمين ومحمود الغز  
لذي وغيرهم من الغزاة الذين تقلبوا علي ملتان رغم قوة حصونها الطبيعية .

ولكن ما يسترعي نظرك في هذه المدينة هو التاريخ الديني لا التاريخ  
العسكري . فان المباني التي تشرف على الحصن هي مقابر بهاء الحق وجده .  
كان السلطان محمود طغلق قد بنى المقبرة لنفسه ، ولما مات الولي — وكان  
المستشار الروحي للسلطان — تنازل السلطان عن مقبرته للولي ، وبنى لنفسه  
مقبرة أخرى في مدينة طغلق اباد .

لقد زرت ضريح بهاء الحق وضريح الشاه يوسف الجرديزى . ولقد أكرم آل الجرديزى وفادتي في « الديوان خانة » أى دار الضيافة . ومن الغريب ان محمى ولي الله الشاه يوسف لأن محمى يوسف ، وكذلك ستالين محمى لأن اسمه يوسف .

والاسطورة المتداولة هي أنه منذ تسعة قرون مضت وفد الشاه يوسف الجرديزى على مولتان راكبا أسدا وفي قبضته ثعبان حتى يستخدمه كالسوط ليذهب به ظهر الأسد ، وهناك زوج من الحمام يرفرف حول رأسه ، وقد ركب الشاه يوسف أسده على طول الطريق من جرديز فى أفغانستان حتى ملتان . وأحضر معه إلى ملتان معالم اللآلئ الاثني عشر من الشيعة ، وفي خلال السنوات التسعمائة تكاثر نسل الجرديزى حتى شمل ربع مدينة ملتان وتكاثر الحمام حتى ليغطي سطوح دور آل الجرديزى .

وضريح الجرديزى مكسوا بالقرميد الأزرق وهو من عهد الامبراطور حايون المغولى ، وفي السقف فتحات تسمح للحمام بالاقتراب من رفات ولي الله .

وهكذا قضى آل الجرديزى تسعمائة عام متصلة ، فى هذه البقعة من الأرض والدنيا من حولهم فى تغيير مطرد .

## ٤ — الأُجواء السبعة

ان جغرافي العرب القدماء يتبعون الأغريق في تقسيم هواء الأرض إلى سبعة أجواء تبدأ بالحر وتنتهي بالمتجمد . وأحس اني مررت بهذه الأجواء السبعة أثناء رحلتي من ملتان إلى بشار وتراني اليوم في بشار ارتدى معطف انجليزى وصديريه من الصوف . وماء المطر يتساقط وكأنه الجمد والسحب المحملة بالامطار تتحرك نحونا قادمة من الجبال الغربية . وقبل ذلك بأسبوع وانا في طريقى من ملتان إلى لاهور لم أكن اطبق ملابسى الصيفية الخفيفة ، وكنت اتصبب عرقا رغم اني ألبس سراويل قصيرة . اخيرا آمنت بالأجواء السبعة وعرفت أولها وآخرها .

ان الدنيا فيما يحيط بمدينة بشار في تغير مطرد . فنذ زمن ليس بعيد كان المسافر عن طريق عمر خير ملزما بدفع أتاوة لقبائل الأفريدى وإلا لقي حتفه ، وقلما بقى على قيد الحياة حينذاك من تحدى الإفريدى ، حتى ولو كان امبراطورا . أما اليوم فتستطيع أن تخترق المرور ذهابا وحيثة في سيارات عامة يقودها أبناء قبائل الأفريدى وبدلا من دفع الاتاوة تدفع أجر السيارة .

وعلى الحدود بين أفغانستان وباكستان وجدنا جمعا كبيرا من الناس ظننتهم من الحجاج ، ولكن تبين لى فيما بعد أنهم ذاهبون إلى سوق مدينة لاندى كوتل حيث تعرض أباريق الشاى الروسية وأجهزة الراديو الألمانية والمنسوجات الحريية الهندية بأسعار عالية .

وكثيرا ما يهرب التجار من دفع الرسوم الجمركية للحكومة الباكستانية ولكنها تتعامل عن ذلك قصدا ، كي تتيح الفرصة لسكان تلك المناطق الجبلية الفقيرة من كسب عيشهم ، وإلا عادوا قطاع طرق كما كانوا من قبل أو اتجهوا إلى زراعة الخشخاش للحصول على مادة الأفيون .

كانت هذه القبائل الجبلية فى الأيام الماضية تقيس قوتها و ثراءها بما تملك من البنادق ، ولكنها اليوم تقيسها بما لديها من اللوريات وسيارات الأومنيبوس . وفى مقدمة هذه القبائل الأفريدى والشغوارى ، أما قبائل اليوسف زاي فتعيش على الزراعة فى الوديان الخصبة .

الطلبة الباكستانيون الذين يتلقون علومهم العسكرية في كابل يتلقون تعليمًا عسكريًا على أيدي ضباطهم ، ولكنهم بجانب ذلك يتلقون دروسًا على أيدي الطبيعة في فن تقدير الجبال . ذلك أن المنطقة المحيطة بكابل تترك في النفس أثرا لا ينسى . فالأكاديمية تقوم على قمة منحدر يهبط على شكل مدرج تحيط به الجبال من كل ناحية . ومن هذه المنطقة القليلة الارتفاع نشاهد على بعد القمم الشاهقة التي تبتك بأنك على قرب من حائط البامير أو سقف الدنيا ، كما يطلق عليها البعض فإذا ما درت بناظريك بمنتهى شهدة بساطاً سريعاً أخضر وقد سرت بين خضرتة جـ اول كاللجيني تغذيها المجارى المائية المتدفقة من الجبال .

دعيت في ذلك اليوم لالقاء محاضرة في الأكاديمية وكان موضوعها « الأمن الدولى ونزع السلاح فى العصر الذرى » وقد لاحظت على طلبة الكلية الحرية أن وقتهم مقسم مناصفة بين العلوم العسكرية والعلوم الثقافية كذلك لاحظت أن حوالى ثلث هيئة التدريس من غير العسكريين . والواقع أن الأكاديمية ككل العسكرية من المؤسسات التعليمية الهامة التى يجب أن تعتز بها باكستان وتحفظ بها حتى لو استطاع العالم أن يحقق نزع السلاح .

ان كلمة هزاره معناها بالفارسية « ألف » هذا على الرغم من أن سكان هذه البلاد لا يتكلمون اللغة الفارسية . أخيراً استطعت أن اكتشف السر فالألف هنا تشير إلى ألف قطيع من الغنم والماعز والجاموس تنتقل ذهاباً وحيثاً بين بشاور وهزاره . ان رعاة البانودة الرحل يقضون الشتاء فى سهول باكستان والهند ، كما يقضون الصيف فى أفغانستان ، وهم الآن فى طريقهم إلى منتجعهم الصيفى عن طريق نمر خيبر .

فى طريق عودتنا مررنا بهاريور ، وهناك اتجهنا غرباً كي نكون على

مقربة من نهر السند . وفي طريقنا إلى السند سرنا بجانب أحد نهراة الصغيرة الذي كانت مياهه تتدافع في سرعة عظيمة حتى تصل إلى النهر الكبير ، وعند مدينة أتوك شاهدنا نهر السند يمر بخائق ضيق يكاد يكتم انقاسه ، وعلى هذا الخائق اقيم كوبرى ضخيم . وما أن عبرنا الكوبرى حتى أصبح لا يفصل بيننا وبين السند غير حقول الخشخاش .

في هذا المكان معبر آخر للنهر مكوناً من مجموعة من القوارب ، وعلى قرب من هذه البقعة كان الإسكندر الأكبر قد عبر نهر السند ليضم قوات حليفه ملك تاكسيلا ، ثم يسيران معا لمحاربة الملك يوروس للاستيلاء على معبر نهر جهيلم . هذا المكان هو زاوية محمودة بين نهرى السند وكابول .

## ٦ - نهر السند في السهول والأغصان

مرة ثانية انحدر عائداً من المناطق القبلية إلى أخرى نظمتها يد الإنسان فأجذني على الحافة العليا لمدينة كوهات . لقيت نظرة على السهل الذي يمتد على بعد كبير أسفل مواطىء قدمي وقد غمرته الحضرة وبدت به مدينة كوهات ، ومن وراء كوهات تماوج سطح الأرض ارتفاعاً وانخفاضاً من سلسلة جبال سليمان حتى وادى السند لم يفتني في هذه المرة أن أبادر بالانحدار إلى أسفل الجبل لأشاهد السند في قيوده وأغلاله . ولن تكون هذه المرة الأخيرة التي أنخذل فيها سبيلي داخل ذلك القوس الجبلي الضخم فسوف أعود إليه في طريقى إلى وادى كورام وإلى كوتا ومن هناك أعود إلى البحر ماراً ببلوختان . قيد السند في فبحراء عند تقطين وها أتوك وقلعة باغ ، فعند أتوك يضيق المجرى فجأة ، ولكن ما أن يبلغ قلعة باغ حتى تفك قيوده ويتسع المجرى متدرجاً في الاتساع حتى يصل عرضه ميلاً كاملاً ثم ينحدر هابطاً على طول امتداد إقليم السند كنت قد أعددت نفسي في ذلك اليوم لزيارة الكوبرى المقام على السند عند خوشالجار ، وعلى أن أقطع جانباً من الرحلة في الممر الضيق الذي يجرى فيه السند في هذه المنطقة . وتساءلت ترى هل قدر لنا أن نخرج سالمين بعد نهاية المرحلة الأولى من عبور هذا الممر الضيق ؟ أهو مهبط لولبي ؟ نعم ! تلك هي العبارة التي تؤدي المعنى . لقد وقف شعر رأسي من الرعب أثناء الهبوط وذكروني في هذا الموقف بالطريق حول شبه جزيرة سورتا جنوب مدينة نابلي الإيطالية إن كان القارىء قد غامر ذات يوم بدخول مصيدة الموت الإيطالية في شبه جزيرة سورتا لاستطاع أن يتصور الخطر الذي يهدق بمن يهبط من ممر كوهات إلى مدينة كوهات فالجبل ينحدر بشدة إلى السهل في درجات هائلة وأنت في هبوطك لا بد وأن تدور حول هذه الدرجات المرعبة . أن سيارتك في كل لحظة على حافة الهاوية ولا بد من اعصاب فولاذية لمن يقود مثل هذه السيارة ومن يركبها .

وما اتينا من زيارة مدينة كوهات والسهل المحيط بها حتى ألقينا أنفسنا مرة أخرى وسط الصخور السوداء التي لو لا صمتها الطويل لا بتلت سيارتا منهنما أوتى السائق من مهارة .

ذلك هو المكان الذي يحصر نهر السند وكأنه عملاق هائل مقيد بالسلاسل والأغلال ، أخيراً اتينا من هذه التجربة المفزعة ووقفنا على الكوبرى فوق نهر السند . من الغريب أنك عندما تنظر إلى ماء النهر من أعلى الكوبرى يخيل لك أنه بطيء التيار . ولكن إذا أمعنت النظر شاهدت دوامات تدور حول بعضها فى حركة سريعة وكأنها فى صراع محاولة التخلص من ذلك السجن الخيف .

وعلى صخرة بارزة رأينا راعياً خلف قطع من البقر والأغنام . أما البقر فقد وقف هادئاً تحت الشمس الساطعة وأما الأغنام فقد كانت تتراحم وتتلاصق ببعضها البعض خوفاً من خطر قادم . فما هو الخطر ؟ لقد أخذ الراعى يحصرها جماعات ثم يدفع بكل جماعة فى ماء النهر بين الصخور البارزة . باله من مجنون . أم هو تلك الروح الشريرة التى قذفت بخنازير جادارين لتلقى حتفها فى بحر الجليل طبقاً لما تقضه الأسفار المقدسة ، ولكن الخنازير غرقت فى بحر الجليل رغم خفة الشعر ، فما بالك بتلك النعاج الكثيفة الجز ؟ لا بد لها من الهلاك . ولكن لا ليس الراعى بمجنون ولا هو يحوى بين جيبه روحاً شريرة ! إنه يعرف عمله جيداً ، فقد آن الأوان لتنظيف صوف الغنم ، وخير طريق لذلك هو غمر النعاج بأصوافها فى ماء السند .

ذكرني هذا الحادث بأغنامنا الانجليزية عندما نعلسها فى حوض من الأسمت لتنظيف صوفها . وقلت لنفسي . لو أن أغنامنا الانجليزية مرت بتلك التجربة القاسية التى تلاقىها أغنام باكستان لماتت فزعاً قبل أن تموت غرقاً .

ولكننا فى الشرق الأوسط وهذه أغنامه تقفز فى ماء النهر فتغوص حتى ليخيل لك أنها غرقت . ولكنها تطفو على سطح الماء ثم تكافح متسلقة الشاطئ الصخري حتى تبلغ الجانب الآخر من النهر فى أمان .

زادني في هذا المنظر اعتقاداً بأن سلاسل الشرق الأوسط أكثر تفوقاً  
وأقدر على مصارعة الأهوال من السلاسل الانجليزية .

ذكرني هذا بعبارة كان الشاعر الياباني كوشال خان الذي عاش في القرن  
السابع عشر قد وصف بها شجاعة قومه فقال إن لهم شجاعة الأغنام وكنت قد  
أنكرت من الشاعر هذا التشبيه الغريب . ولكن بعد أن رأيت ما رأيت آمنت  
بأن كوشال خان على حق .

---

## ٧ - سيرة أريحا

لم أر في حياتي مدينة مثل أليس ، إنها مدينة الخيال ، ولكنني شاهدت اليوم شبيهة لمدينة أريحا التاريخية . أقف الآن على قمة احد المرتفعين العظيمين قرب تشارسدا . العاصمة القديمة لإمبراطورية جاندارا ، قبل أن ينقل أباطرة كوشان عاصمة ملكهم إلى بشاور . إن مرتفعات تشارسدا تطل على مساحة واسعة ، تحيط بها ثلاث سلاسل جبلية من ثلاث جهات ، أما الجهة الرابعة فتطل على نهر السند . ومن هذا المكان تستطيع أن تشرف على سهل فسيح تكسوه الخضرة اليانعة ، ويمتد مسافات بعيدة في جميع الاتجاهات . ها هو أمام ناظريك صف طويل من اشجار الحور ووراءه خط طويل من الجرف الرملية ، وهامعاً يشيران إلى وجود أحد القنوات المتفرعة من نهر كابل ، وهو في مجراه المتعرج عبر السهل حتى يلتقي أخيراً بنهر السند . وهناك عدة قنوات من هذا النوع تربط نهري كابل وسوات ، وهي شبيهة بمجاري أوروبا الشمالية مثل شبرول وآفون وأوز وألب . ومن تلك المجاري المائية في حوض السند تتفرع قنوات لا حصر لها لرى أراضي السهل الخصبة . والحقول هنا تنتج القمح والأرز وقصب السكر بجانب حدائق الفاكهة من المشمش والبرتقال والبرقوق والكثير . وإن كان الحظ قد أسعدك فزرت سهل لومبارديا وغوطة دمشق فاجمع بين الطرفين في منظر واحد ، هو ما تشاهده الآن في إقليم جاندارا . ولكن جاندارا تمتاز بمنظر فريد لا يشاركها فيه أى بلد آخر . ذلك أن أنهارها وجداولها تشق طريقها بعنف بين السلاسل الجبلية ثم تنساب في رفق ولين فوق السهل الفسيح .

لقد شاهدت نهر كابل يندفع متدفقاً نحو ورسك ، كما شاهدت السند في مثل هذا العنف والمجرة قرب آمب ، واليوم أشاهد نهري سوات بدوره يهدير متدفقاً نحو أباطاي . ذلك أن الجدار الصخري الذي يخنق مجراه عدة أميال

يتفرج فجأة فتندفع المياه كالسيل الجارف وكأنها قذيفة انطلقت من فوهة مدفع .  
ولقد قدرت أن نهر سوات الذى تغذيه الثلوج الذائبة فى منطقة سترال النائية  
يحمل من الماء مثلما يحمل نهر التيمس عند مدينة ريدينج ، ولكن لاتسي أن  
سوات ليست إلا فرعاً من نهيرات السند ، لا عجب إن توافرت مياه سهل السند  
ولا غرابة إن قامت مشروعات الري ، الواحد فى اثر الآخر للاستفادة من هذه  
الكميات الضخمة من المياه الضائعة فى البحر .

طالما كان سهل السند بثروته الزراعية الهائلة مفتاحاً للطريق الذى يربط  
شبه القارة الهندية بقية العالم القديم . ويمكنك ان تقيس طول الزمن الذى  
ظلت فيه جاندارا تلعب دورها التاريخى بارتفاع الأكمة التى تقوم عليها تشارسدا  
فهذه الأكمة تكونت من عدة طبقات من خرائب المباني الأثرية القديمة . كانت  
هذه المباني الأثرية من اللبن المجفف فى الشمس ، فتحولت إلى رماد فوق رماد  
حتى أصبحت شبيهة بالأكمة التى قامت عليها مدينة أريحا . ووجودها يمثل سلسلة  
متصلة من تاريخ الإنسانية تعود بنا إلى الورا حوالى ثلاثة آلاف عام . والفرق  
بين تشارسدا وأريحا أن أريحا أكثر إغلا فى القدم . وهناك فرق آخر ، وهو  
أن حقول أريحا كانت تستقى من عين ماء ، أما تشارسدا فتغذيها مجموعة من  
الأنهار التى تبعث الخصب والنماء بسهولة الفسيحة المحيطة بها .

وقد توقفت أكمة تشارسدا عن النمو منذ ألف وخمسةة عام . وقد يرجع  
سبب ذلك إلى انها لم تهض من كبوتها بعد أن اجتاحتها جحافل الهون فى القرنين  
الخامس والسادس الميلادى . غير أن ما فات تشارسدا من آثار المدينة التالية لذلك  
التاريخ تجده ماثلاً فى قلعة شابقادار ، ذلك أن الطابق العلوى منها طراز بريطانى  
من عهد الملكة فيكتوريا ، أما الطابق السفلى فهو من صنع الشيخ فى أوائل القرن  
التاسع عشر . ويقوم على حراسة قلعة تشارسدا فى الوقت الحاضر قوات  
الحدود الباكستانية .

لقد أقبل البريطانيون وادبروا وغزا المسيح وتهقروا وبقى الحصن قائماً  
يتحدى الزمن ليشهد على أن جهود البشر وإن عظمت مصيرها إلى الزوال . ومع  
ذلك فربما يقدر لبعض جهود الانسان الخلود . سر شرقاً من تشارسدا إلى

تحت بهائي لتجد نفسك أمام آثار تحدث بطش الزمان ، وتحت بهائي جبل منزل يرتفع عموديا فوق قرية شهر بهلول . إنه ليس على ارتفاع عظيم إذا ما قورن بسلاسل هندوكوش أو الهمالايا التي تكشفها العين من قمة تحت بهائي عندما تكون السماء صافية . ولكن ارتفاعه العمودي وجوانبه الشديدة الانحدار تجعله يبدو كجبل عال ، وعلى أحد جوانبه الشديدة الانحدار يقوم معبد بوذي .

وفي هذا المكان الموحش حقق الكهنة البوذيون أملهم في الرياضة الروحية الغنية . فقد خلفوا وراءهم عالم الشهوة والملذات وقنعوا بالصفاء الروحي في عالمهم المنعزل . وإنك لتحس هذا الصفاء الروحي مائلا في كل خلوة من خلواتهم وفي كل قناء من أفقيتهم حتى لقد تحس أن العقيدة البوذية تملأ جو السهل القائم في أسفل الجبل .

وشهير بهلول منطقة أثرية تقوم على أنقاض إحدى المدن القديمة من عصر إمبراطورية جاندارا . شتان ما بين الحياة الصاخبة في أسفل الجبل وبين السكينة والصفاء الروحي الذي ينجم على قمته .

## ٨ — إلى الشرق في أعقاب الإسكندر

ليس هناك ما هو أشد إثارة للمشاعر من عبور نهر السند في الطريق من كامبل وبشاور إلى يندى ولاهور . فالطريق من شمال فوشيرا يحف بالشاطئ الجنوبي لنهر كامبل قبل أن يفرغ مياهه في السند . وهنا نجد السند لا يزال يسير الهويناء وسط تيه من الجداول والقنوات . ولكن ما أن تتجاوز الطرف الغربي للمجرى وتحرف إلى جهة اليمين حتى تجد تلك المجارى المائية المبعثرة وقد حيت مياهها وتداقت تلك المياه في قوة إلى خائق ضيق ومن هناك بدأت تتدفق تدفقا سريعا . وعلى المرتفعات الواقعة على الجانب الآخر من هذا الخائق أقام الإمبراطور « أكبر » حصنا هائلا يثبت أساس جدره العالية على حافة النهر .

وكوبرى أتوك وحصن أتوك لهما اليوم شهرة خاصة ، ولكنهما من الناحية التاريخية يعتبران من المستحذات . ولقد كان أمرا طبيعيا أن وقع اختيار مهندس القرن التاسع عشر على ذلك الخائق ذى الجوانب الصخرية لإقامة كوبرى فوق نهر كبير . ولكن ما يثير الدهشة هو أن وقع اختيار مؤسس إمبراطورية فى القرن السادس عشر على نفس هذا المكان ليقم جسرا من القوارب وأسطولا من القرب المنفوخة كوسيلة لعبور جيشه من جانبى النهر إلى الجانب الآخر . لقد ظلت القرب المنفوخة حتى عهد قريب الوسيلة المألوفة لعبور نهر السند ، وكانت حتى عهد الإمبراطور أكبر الوسيلة الوحيدة لنقل الجند والحجاج والتجار من أحد شاطئى السند إلى الشاطئ الآخر .

وهناك سهل يبدأ عند السفح الشرقى لمر خير ويمتد امتدادا متصلا حتى يختفى تحت سطح البحر عند الطرف الشمالى لخليج بتقال والسند يقطع هذا السهل على بعد من نهاية طرفه الغربى . ويخرج السند من خائق ضيق فى السفح الجنوبى

للهمالايا فيجربى فى عنف ولا تهدا ثورته إلا عند مروره بهذا السهل ، ~~فإنه~~ لا يكاد يستريح قليلا حتى يدخل مرة ثانية فى خائق آخر عند أتوك . ولا تجد السند هادئاً وديعاً إلا فى المسافات بين كل خائق وآخر . وكانت قد جرت العادة على أن يعتمد المسافرون إلى عبور النهر فى منتصف المسافة التى يقطعها هادئاً وسط السهل ، غير أن الأمبراطور أكبر شذ عن هذا العرف وعبر النهر بجيشه عند أحد الخوائق . وكان الإسكندر من قبله قد شذ على كثير من المبادئ المستقرة ولكنه لم يخرج على عرف عبور نهر السند كما خرج عليه أكبر ، ذلك أن الإسكندر عند غزوه للهند عبر السند فى نفس نقطة الوسط المهادئة التى اعتاد المسافرون عبوره عندها . ولا يزال أثر مكان عبور الإسكندر لنهر السند ماثلاً فى خرائب حصن هوند . ومن المشكوك فيه أن هذا الحصن باق منذ عهد الإسكندر ولكن وجوده دليل على أن هذا المكان كان موضع عبور الإسكندر لنهر السند . وقد ظل كذلك حتى قام الأمبراطور أكبر ببناء حصن آخر عند أتوك . وعلى كل فقد أبدت رغبتي زيارة حصن هوند فرافقني فى زيارتي أحد أساتذة جامعة بشاور .

وعلى الجانب الأقصى من مارد لاحظت أن الطريق القادم من سوات يلتقى بالطريق القادم من بشاور عند شاهز جارج حيث تجد كتابة أثرية من عهد الأمبراطورية أسوكا ، واختيار أسوكا لهذا المكان دليل على أن نفس المكان كان ملتقى هاماً للمواصلات فى عهده . فهل ياترى فى هذا المكان أو فى مكان آخر بالقرب من تشارسدا ، هبط الإسكندر ، من الوديان الشمالية ليلحق مرة ثانية بجيشه الذى كان يسير فى اتجاه نهر السند فى طريق أكثر إينالاً نحو الجنوب ؟

على أى حال عندما وصلنا سوابى تأكدنا أننا كنا فى الطريق الذى سلكه الجيش المقدونى من قبل . ومن سوابى انتقلنا إلى عبر حيث أصبحنا على بعد ميلين من حصن هوند . ولكن إذا أردنا أن نصل هوند من عبر فعلياً أن نترك الطريق الرئيسى وتتخذ طريقاً جانبياً .

لا فرق لدينا بين أن نسير فى طريق رئيسى أو جانبى ولذلك فقد دهشت

إذ قطب رجالى وجوههم عندما اقترحت اتخاذ الطريق الجانبى بدلا من الرئيسى إلى حصن هوند . ولكنى بدأت أدرك الفارق الكبير بين الطريقين هنا فى باكستان .

ذلك أننا ماسرنا مسافه مائتى ياردة فى الطريق الجانبى حتى غاصت سيارتنا فى الطين واضطررنا إلى العودة للطريق الرئيسى للانتقال منه رأسا إلى هوندا .

فى هذه المرة ركبنا عربة التونجا وما أن سارت بنا قليلا فى طريق هوند حتى فوجئنا بأحد نهيرات السند وقد ظهر على بعد . ولم يكن هذا النهر غير جدول صغير ، استطعنا عبوره بالتونجا ، ولما وصلنا مدخل هوند امتلأت قوسنا سرورا وبهجة . وزاد سرورنا عندما وقع بصرنا على بقايا طريق معبد مؤدى إلى النهر . لا بد وأن يكون هذا هو المعبر الذى استخدمه الاسكندر وغيره من الفاتحين باستثناء الامبراطور اكبر الذى شذ عن القاعدة ، ومجرى النهر هنا يتسع اتساعا كبيرا إذ يبلغ ستة أميال . وقد ابلغنا المرافق أن عبور النهر يتم بواسطة القرب المنفوخة ، وإن « المداوى » الماهر يستطيع أن ينقل من احد جانبي النهر إلى الآخر حمولة يبلغ وزنها ١٨٠ رطلا على ظهر قربة منفوخة من جلد الجاموس . ذكرتنى هذه المعلومات بجيش الاسكندر عندما عبر النهر فى هذا المكان منذ آلاف السنين . فقد كانت كل قربة من جلد الجاموس المنفوخ تكفى لنقل جندى من المشاة المقدونيين بسلاحه الكامل ( الخوذة والحربة والترس ) ، بل وقد يحمل الجندى معه ماغنمه من المعارك المختلفة منذ بدأ زحفه من هلسيونت حتى عبور السند . وأخيرا انتهت زيارتنا لحصن هوند ولم يسعنا إلا أن نعود أدراجنا عابرين السند مرة ثانية .

## ٩ - مصناه كل يوم

لقد وصلنا أجمر وإذا فتحن الآن في قلب راجا ستان . ولطالب كانت اجمر طريقا للحركات المهمة في هذه المنطقة . لقد كانت مركز الرجال الدعوة الاسلامية . وكانت معبرا لأباطرة المغول في القرن السادس عشر ، وكانت مركزا للاستراتيجية البريطانية في القرن التاسع عشر ، وأخيرا كانت مركزا لذلك الرجل الأملح الذي فكر في إنشاء كلية مايو . ان مسجد وارجه في أجمر يضم رفات معين الدين شتي . ولكن شيئاً من ذلك كله لم يسترع انتباهي ذلك لأنني كنت في قلق من أجل العودة قبل غروب الشمس .

وقبل أن أختم زيارتي لراجا ستان أود أن أشير إلى أن هذا الأقليم يضم عددا كبيرا من الحصون والقلاع القديمة لامثيل له في كثرته إلا ما تراء في اليونان وإيطاليا . وإذا اردت أن تقوم بزيارة هذه الحصون فلا أقل من أن تزور حصنين كل يوم . ولا عجب فهذه البلاد كانت في عهدها الاقطاعي تحت حكم سيادة الاقطاع الراجيوت . وكنت أود أن أرى الصخرة التي اعتاد هؤلاء السادة الراجيوت عند غزوهم للبلاد أن يلقوا منها بسكانها الأصليين فيلقون حتفهم وتتناثر اشلاؤهم ودماءؤهم على الصخور .

## ١٠ - مصوره وأكواخ

هل تستطيع ان تتصور هنرى السابع ملك بريطانيا الاتوقراطي وكنت اتلى رئيس وزراء بريطانيا فى وزارة العمال . وقد اجتماعا معا فى صعيد واحد ؟ إذا استطعت أن تجمع بين النقيضين فى خيالك ، فى استطاعتك إذاً أن تدرك سر الثورة الاجتماعية التى شبت فجأة فى راجا ستان بالأمس فقط . كان الراجات وفرسانهم يمتطون صهوة جيادهم وكانت راجا ستان مقسمة إلى مالا يقل عن ثلاثة وعشرين إمارة على كل منها أمير من الراجيوت له امتيازات الامارة التى تضمنتها معاهدات الراجا الراجيوتانى ، كما اختفى معه الحاكم الأنجليزى . ولم يفقد هؤلاء الراجات امتيازاتهم فقط ، بل أنهم وقعوا تحت سلطان حياة ضرائب الدخل من عمال الحكومة . ولقد استنزفت أموالهم الموروثة ضرائب الإيرادات وضرائب الزكات ، حتى أن أحفادهم لابد وأن يتوسلوا ملحين فى إلغاء ألقابهم الموروثة كي يتخلصوا من الأعباء الثقيلة التى تفرضها عليهم هذه الألقاب ، وهى ألقاب لاتعود عليهم إلا بالسخرية واستزاف المال الموروث .

ولاشك أن ضياع الامتيازات الموروثة بهذه السرعة المفاجئة مبعث على الألم الشديد ، ولكنها على أى حال لاتزيد ألباساً فى راجاستان عما هى عليه فى إنجلترا أو أمريكا مثلاً . وعلى كل فهذا هو الاتجاه العالمى الجديد وما يحدث الآن للطبقات الممتازة فى راجاستان يصيب مثيلاتها فى جميع انحاء العالم . والواقع أن المرء لا يستطيع أن يبدى أسفه على مثل هذا التغيير وإن كان هذا لايتبع من العطف على بعض الحالات الفردية وعلى أى حال فإن انزال السادة فى راجاستان من مكاتهم العالية شئ كان قد آن أوانه منذ زمن بعيد . ذلك أن الفرق بين الأغنياء والفقراء فى هذه البلاد كان واضحاً بشكل لايمحتمل .

إن راجستان بلد محدود الموارد ، ولكن هذه الحصون المنيعه والقصور الباذخة التي كان يشيدها الراجات اعتصرت من دماء الشعب الفقير .

كانت آخر مرة زرت فيها راجستان قبل الآن منذ ٣١ سنة . وقد شهدت حينذاك كيف أن الحاكم الراجيوتاني قد شيد قصرا تعلوه قبة لا تقل عظمة عن قبة كاتدرائية القديس بطرس ، ولم يقتصر الأمر على الحاكم فقط بل أن ملاك الأراضي كانوا ينعمون في قصورهم بوسائل الترف الحديثة من حمامات فاخرة ونور كهربائي وتلاجات كهربائية وغيرها من وسائل الترف الواررة اليهم من أمريكا . وبجانب ذلك بقيت أكواخ الفلاحين على ما كانت عليه منذ آلاف السنين .

أما اليوم فقد هبت عواصف الإصلاح فاكسحت في طريقها كل ما يخالف روح العصر في السهل والجليل . وتقوم الهيئة المشرقة على برنامج تنمية المجتمع الهندي على اعادة توزيع الثروة ، كذلك تقوم هيئة تطوير الادارة في راجستان بعمل مثل في اعادة توزيع السلطة . ولا تزال الحركتان في مراحلهما الابتدائية . ولكن من المتوقع أن تظهر نتائجهما الهامة بالتدريج .

ولن يمضي جيل حتى نكون قد احدثنا انقلابا كاملا في راجستان .

لقد بدأنا في راجستان حفر آبار جديدة وشق طرق جديدة وإنشاء مدارس جديدة ، وأهم من ذلك أن الذي يتولى الأمور في كل قرية طراز جديد من الرجال ليسوا سادة ولا إقطاعيين . وهذا هو الاتجاه السليم .

والسادة الذين جردوا من املاكهم . كان عليهم فيما قبل عهد الحكم البريطاني أن يظلوا شاهرين سيوفهم في وجه كل من يحاول انتزاع ما اكتسبوه بحمد السيف .

ومن هنا اصبح الاقطاعي الراجيوتاني خلى البال خفيض العيش لا يجد ما يدعو به إلى قدح زناد فكره في أداء خدمة للمجتمع . ومعنى ذلك أن المجتمع الهندي خسر فئة من بنيه بعد أن أصبحوا أعضاء عاطلين .

ولكن أبناء هؤلاء الاقطاعيين لن يستطيعوا اليوم أن يعيشوا في الخيال على أمجاد الماضي ، بل لا بد لهم من الكدح في سبيل تحصيل الرزق ، ولا بد لهم من مشاركة الجماعة في جهودها المشتركة وإذن فقد كسب المجتمع بإضافة عناصر منتجة إليه ، بعد أن كانت من قبل عناصر عاجزة عن الانتاج . شيء آخر لا يقل أهمية عما سبق وهو أن العناصر الأخرى مثل البهيل - وهي العناصر التي كانت قد وقعت فريسة لاضطهاد الراجيوت عند غزوهم للبلاد - أخذت تحت النظام الاصلاحى الجديد تستعيد مكائنها كأعضاء عاملة في المجتمع الجديد . وإذا قدر لبرنامج التنمية أن يسير في طريقة الطبيعى فإن هذه الفئة المظلومة وهي تكون الغالبية العظمى من سكان راجستان سوف تشق طريقها إلى البانشايات ( المجالس المحلية ) وهناك تجد البلاد عناصر فنية متحمسة للانتاج . وشيء آخر وهو أن البلاد التي قست عليها الطبيعة تنتج شعوبا ذات قوة وجلد ، ولما كانت الطبيعة قد قست على راجستان بأشد مما قست به على أى إقليم آخر ، فلا بد والحالة هذه أن يكون لدى أبناء هذه البلاد من الجلد والقدرة على العمل والانتاج ما لا يتاح لغيرهم ممن شبوا على العيش الرغيد الناعم .

ولا بد أن يتبلور ذلك الجهد فى مشروعات إنشائية تدر على راجستان الخير العميم .

## ١١ - الرجل الجسور

هو رجل صغير الجسم متواضع ، تزين رأسه عمامة بيضاء عادية لا عمامة قريزية أو صفراء داكنة ، من ذلك الطراز الجديد الذي أخذ ينتشر في جيور وماروار . ولم يكن في ملامحه ما يدل على ما تتطوى عليه نفسه من بسالة وإقدام ، إلا تلك الابتسامة التي ينعكس سناها على وجهه . ولكن هذا يحتاج إلى مجلدات في وصفه . ففيها خلاصة قصة ذلك الرجل الفائق الذي أتى من أعمال البسالة بالشئ الكثير ، منذ ستوات قليلة لم يكن نصيب هذا الفلاح الراجستاني من الأرض أكثر من نصيب غيره . وهو نصيب ضئيل من الأرض الرملية التي تتخللها الجسور والحفر والأغوار المعدة لتجميع الأمطار الموسمية وتخزينها . ولم تكن أرضه في حالتها البكر تصلح بشئ إلا أن تكون مرعى للماعز والأغنام .

ولكن ما أتاه هذا الفلاح المتواضع في فلاحه هذه الأرض الجدياء ، كان مثالا حيا لكل من يحوى بين جنبيه روحا مغامرة من أبناء جلدته ، فلاحى راجستان . استطاع بطل قصتنا أن يقتض ٢٥٠٠ روية من أحد المرايين وساعدته الحكومة بمبلغ مماثل . وبالألاف الحمة من الرويات حفر بئرا وأقام عليه طلمبة تدار بالبنزين ، وبهذه الطريقة استطاع رى خمسة عشر فدانا من أرضه وفي هذه الأرض المروية زرع أشجارفاكهة «الباباز» ولما كانت أرضه على مسيرة ساعات بالعربات التي تجرها الثيران من مدينة جيور فقد استطاع أن ينقل محصوله إلى المدينة ويحصل على أرباح تغطي ديونه . وتجعله موضع حسد جيرانه .

أنى ما أردت لك بقصة هذا الفلاح الا لأضرب لك مثلا على ما يمكن أن يحققه إقليم راجستان في المستقبل . فالأرض وافرة الخصوبة بها كل العناصر الكيماوية اللازمة لإنتاج أنواع مختلفة من المحاصيل . وكل ما ينقصها الماء ، وتوفير

المياه في راجستان يحتاج إلى قلوب جريئة . وإني أرى الهند اليوم وقد غمرتها روح الجرأة والاقدام ولن تمضي بضع سنين حتى تكون أقاصى أطراف راجستان على الحدود بين الهند وباكستان وفيرة المياه بعد القحط الشديد الذي كان يهددها منذ زمن بعيد . وسوف يتحقق ذلك بحفر أطول قناة للرى فى العالم وعلى الرغم من شدة حرارة الجو فالتربة خصبة وعندما يصلها الماء سوف تغل القمح والذرة والنباتات الزيتية والمواالح والغنب وسوف يستطيع مليونان من البشر أن يعيشوا على الزراعة فى منطقة لا تمول اليوم أكثر من مائة ألف من الرعاة . لقد سعيت إلى أبناء هذا المشروع العظيم عندما كنت فى جايسليمر ثم أسعدنى الحظ إذ التقيت بالمهندس المكلف بالمشروع فى مطار جيبور . وهذه القناة العظيمة سوف تكون بعد الانتهاء منها مفخرة من مفاخر شبه القارة الهندية وهى وإن كانت تثير إعجابى فهناك ما هو أكثر فى نظرى إثارة للإعجاب : ذلك هو الرجل الصغير المقدام الذى استطاع أن يحول خمسة عشر فدانا من الأرض القفر إلى بستان زاه من أشجار الفاكهة .

## ١٢ - أهيّا .. نهاية الدنيا؟

كان سفرنا من جود يور إلى جايسلر أكثر سهولة من الانتقال بين لندن ونيويورك . فلم تكن هناك تلك العوائق التي تعترض سبيل المسافة بين المدينتين الأنجليزيتين ، فلاسيارات ولا لوريات وكل ما يقابلك قطمان من الغنم والماعز التي تسير الهويّنا على الطريق المرصوف . ولكن ما أن انتهى الطريق الممهّد بالأسفلت حتى أصبح الانتقال على درجة كبيرة من المشقة ، خاصة وقد اختفت رمال الصحراء وظهرت في مكانها عروق الصخر . وبعد أن اجتزنا الجسر والحديقة من خلفه انتهى الماء والتماء . ولم نمد نرى حتى ولا تلك النباتات الشوكية التي يعيش عليها الحيوان في الصحراء الرملية القاحلة . لا بد وأتأ الآن قد بلغنا نهاية المعمورة .

وحينما تواردت على خاطري مثل هذه الأفكار شاهدت عدداً من السيارات الكبيرة محملة بالركاب تسير في نفس اتجاهنا . وقد علمت أن هؤلاء حجاج عائدون من زيارة أحد المعابد الجينية . وأن أداء هذه الفريضة هي أقصى آمالهم في الحياة ان الثرى الجيني الذي قام بالاتفاق على هذه القافلة من الحجاج اصطاد ثلاثة عصافير بحجر واحد : فقد أتاح الفرصة لنفر من اخوانه في العقيدة أن يؤدوا الفريضة وهو بدوره قد نال أجراً مضاعفاً وفي نفس الوقت تخلص من ضريبة الدخل إذ أن اتفاه على قافلة من الحجاج تعتبر في نظر قانون ضريبة الدخل الهندية نوعاً من أعمال البر التي توجب الاعفاء من ضريبة الدخل . أما تصرف الرجل بهذه الطريقة فيرجع إلى مفهوم فلسفة السعادة لديه ، وهو يرى أنه طالما كان لزاماً عليه أن يخرج المال من خزائنه فليوجه هذا المال لطلب منفعة له وللمن يريد بدلا من أن يزيد به دخل الدولة ، وهو مبدأ غريب ولكن ظلية الاثرياء من أهل العقيدة يستقونّه . وفي اليوم التالي عند سفرنا من جايسلر إلى جود يور

مررنا بقافلة أكبر من أولئك الحجاج . ويدو أن حينا آخر أكثر نراه من صاحبنا بالأمس قد تطلع إلى كسب ثواب مضاعف فزاد من عدد قافلة الحجاج التي ينفق على أدائها . أما أن هذا يؤدي إلى عجز أكبر في ضريبة الدخل فأمر لا يهمه . وهكذا همرت تلك الصحراء المحفورة في فترة موسم حج الجيئين .

أن صحراء راجستان منتجة . وكأن إحتاجها هذا بفعل ساحر فلم تكتف بما يتوافد عليها من حجاج جيئين ولا بما يعيش على نباتاتها الشوكية في الطرف الشرقى من ماغر وغنم . ولكنها انتجت مدينة كاملة يسكنها اثنا عشر ألف نفس وهؤلاء جميعاً يعيشون على القليل النادر من المياه التي جلبتها الرياح الموسمية عند مرورها بأطراف الأقليم . ولكن أى مدينة هذه !.. لقد بنيت جميعها من الحجر الأصفر الذهبي الجميل الذى يقطعه الأهالى من صخور الأقليم ، يستوى فى ذلك كوخ الفلاح وقصر الأمير . أما شرفات البيوت فهي محفورة من الحجر المفرغ والنوافذ كلها من الحجر المفرغ المنقوش . هذا فى الدور العادية . فإذا انتقلت إلى دار التاجر الثرى فانت أمام معرض فنى ، ذلك أن النقوش والزخارف آية فى الجمال وإبداع الصنعة . عجيب أمر هذه المدينة . لقد حرمت الطبيعة الإنسان حتى من قطرة الماء وسنبلة القمح ولكن الإنسان كان وفياً للطبيعة فأفرغ عليها من عبقريته آيات الفن والجمال ، ان أكبر ثرى فى أمريكا لمعجز عن أن يقيم لنفسه داراً فى بهاء دار أشد أهالى جايسلر إملاقاً .

إن الصحراء فيما بين جايسلر وجوريور قطعة من جهنم أثناء النهار ورغم ذلك فقد مكثنا فى جايسلر يوماً لنزور القلعة ونشاهد أحد المعابد الجينية .

وفى طريقنا إلى القلعة شاهدنا منظرًا غريباً ذلك هو صفوف متراصة من الكرات الحجرية الضخمة قد صفت على الرفوف الطبيعية لذلك المنحدر الصخري المدرج . وعلينا أن حماة القلعة يدفعون بهذه الأحجار فتسقط على كل من يهاجم قلعتهم وتحطمه . كذلك شاهدنا قبوا صخرياً . حفظت فيه المخطوطات المقدسة الجينية خشية أن تالها يد الإنسان باليوم .

ولقد كلفتنا هذه الزيارة الكثير إذ اضطررنا إلى العودة من الزيارة ظهراً  
وما أن سرنا قليلاً تحت الشمس المحرقة حتى وصل الماء داخل « رادياتور »  
السيارة إلى درجة الغليان ، مما اضطرنا إلى التوقف بين لحظة وأخرى حتى يبرد  
الرادياتور . وقد أدى هذا التأخير لتخلفنا عن موعد قيام الطائرة إلى نيودلهي  
ولما كنت مكلفاً بالقاء محاضرة في نيودلهي في اليوم التالي فقد اتجهنا بالسيارة  
في ضوء القمر إلى مدينة أجير ومنها ركبنا القطار إلى نيودلهي .

عجيب أمر راجستان ، ان صحراءها ليس بها شيء من القوت ومع ذلك فحينما  
مررت بنبع ماء في هذه الصحراء وجدت صفّاً طويلاً يضم مئات من الأغنام  
والماعز والجمال والبقر وكلها في انتظار دورها للسقيا .

ذكرني هذا المنظر يعقوب وقد وقف في البرية يستقي من البئر ثم جاءت  
راحيل هي الأخرى لتستقي وكان ما كان بينهما من تعاطف وزواج أنجب يوسف  
وشقيقه بنيامين .

## ١٣ - صوار

ان الطرف الجنوبي لصحراء راجاستان هي أكثر مناطقها ماء وخضرة فهنا الجداول المائية والحقول الواسعة من القمح والدخن وهي تقدم لك فكرة مبدئية عن جوجارات الجارة الجنوبية لراجاستان .

وعلى بعد أربعين أو خمسين مترا من مطار أودايبور أخذت الأرض تتعوج مكونة صفاً من الصخور المسننة الحاقة . ومن ورائها في الأفق البعيد سلاسل من التلال والجبال . وفي إحدى الفجوات القائمة بين التلال شاهدنا قمة عالية فتساءلت أيمكن أن يكون هنا حصن تشيتور ؟ مبلغ علمي أنه حصن كبير ولكن لم أكن أتصور أنه يبلغ هذا الحد من الضخامة . لقد كانت أسواره المائلة تتوج قمة ذلك الجانب الشديد الانحدار من الجبل . ويبلغ طول هذه القطعة الراجيوتانية ميلين ونصف الميل . وعرضها نصف ميل على الأقل وعلى ذلك فان سطحها الأعلى لا يتسع لإقامة القصور والمعابد والأبراج فحسب.. ولكنه يتسع أيضاً للحقول. والواقع أن هذا السطح كان ينتج من الحبز والماء ما يقيم أود حامية راجيوتانية عدة سنوات ويدور حول قاعدة إحدى الصخور الكبرى مجرى ماء يصلح لأن يكون خندقاً حول الحصن . وعندما وقف الحاكم الراجيوتاني المحلى يتحدى سلطة الإمبراطور المغولي أكبر كان يعتقد أن حصن تشيتور منبع على الأعداء . ولكن فاة هذا المحارب الراجيوتاني الذي كان تحت تأثير استراتيجية العصور الوسطى ما كان لدى الفاتح المغولي من فن عسكري تركي وخاصة فن المدفعية . عمد أكبر إلى إقامة تلال مرتفعة تسمح لمدفعيته بأن تطلق نيرانها صوب الأسوار وما أن بدأت المدفعية المغولية عملها حتى سرى الدمار في جوانب الحصن .. لقد تصدعت الأسوار ونسف الحصن . وحلت بالحاكم الراجيوتاني كارثة لم يكن يتخيلها من قبل .

لقد كانت كارثة حقيقية ولكنها لم تكن الفاصلة . لقد حرم على الحكام الراجيوتانيين إعادة تحصين تشيتور ولكنهم عمدوا إلى ما هو أفضل ، فقد أقاموا

عاصمة محصنة في ركن آخر من إقليمهم ، ويفضل هذه المدينة الجديدة أنزلوا  
الهزيمة بالمغولي في الجولة الثانية . ان أودايور مثل تشيتور تعتمد على وسائل  
الدفاع الطبيعية يدعمها الفن العسكري . ولكن الطبيعة هنا قامت بدور استراتيجي  
جديد . فبدلاً من أن تقام أورايبور على قمة صخر كما حدث في تشيتور فإنها  
رقدت في منخفض تحيط به الجبال من كل جانب ، بحيث تقيم حوله سوراً  
طبيعياً . ويدو لك أن الأرض تجري بك عند انتقالك من المطار إلى المدينة .  
وما أن تصل أبواب المدينة حتى يفرج الصخر ويبيء لك سبيل الدخول . وفوق  
تلك الصخرة القائمة على مدخل المدينة أقيمت بوابة صخرية محصنة على جانبيها  
أسوار ضخمة ترتفع إلى حد يصعب معه على أي مهاجم أن يقترب منها .  
في هذا المكان انتقم الراجيوتانيون لهزيمتهم في معركة تشيتور مع أكبر بأن  
أوقفوا بحفيدة اورانجزيب هزيمة منكرة عند مدخل أورايبور . عندما دخلنا  
أورايبور من هذه البوابة المحصنة وجدنا بركة ماء صناعية كبيرة .

ولن أنسى منظر النساء وهن يغسلن الملابس في هذه البركة وأمامهن  
المستحمون والماء يتناثر من حولهم يمنة ويسرة . كذلك لا أنسى منظر القصور  
المحيطة بهذه البركة . وأشد ما استرعى انتباهي ما وجدت عليه أهل البلد من صعوبة  
المراس وقوة الشكينة ، لقد بعث تشيتور روحاً جديدة في نفوس الراجيوتانيين  
فهبوا في حماس لا إقامة مدينة أورايبور ، أنهم كجماعة من النمل هدم عشها فبادرت  
في عزيمة لا تعرف الكلل في بناء عش جديد . ان الأمراء الراجيوتانيين الذين  
أصدروا الأوامر بإعادة البناء كانوا من أبناء العهد القديم ولكن العهد القديم  
ولى إلى حيث لا رجعة . وفي مكانه اليوم الهند الناهضة تسير حثيثاً نحو التطور .

ولكن الرجال الأشداء الذين صدعوا بالأمر عندما صدرت إليهم تعليمات  
الأمراء بإعادة البناء فأقاموا من الجبال حصوناً ومن الوديان مدناً هم أجداد رجال  
راجيوتانا الحاليين ، أبناء القرن العشرين . وكما استطاع الأجداد الوقوف في وجه  
الطغيان ممثلاً في الامبراطور المغولي أكبر وأبنائه فكذلك سوف لا يستطيع  
الأحفاد تحدى الزمن والمساهمة في بناء طائفة جديدة على دعائم وطيدة من  
السلام والحرية والنهضة الشاملة .

## ١٤ - العودة إلى نيودلهي

بعد أن انتهت من زيارة أورايبور علت إلى نيودلهي لأمضى بها يومين قبل السفر إلى أفغانستان . وفي أثناء إقامتي في نيودلهي علت أن مطار كابل مغلق وأن علي أن أرحل بالسيارة من بشاور .

في يوم الإثنين ١٨ إبريل غادرت دار مضيقي الدكتور مراد كريشنا في شارع مولانا أزاو في نيودلهي إلى محطة دلهي القديمة . ولا يفوتني هنا أن أذكر أن المطر كان ينهر في ذلك اليوم . ذلك لأنه من غير المألوف سقوط المطر في نيودلهي في مثل هذه الفترة من العام . وإذا كان المطر يسقط بهذه الغزارة في نيودلهي فكيف يكون حاله في المناطق الجبلية بين بشاور وكابل لا بد وأنه ينهر هناك في سيول جارفة .

وبعد مسيرة بعض يوم في القطار وصلنا أمر يتسار وهناك كان لا بد من إجراءات كثيرة في منطقة الحدود بين الهند وباكستان . وعندما وصلت محطة بشاور أخذتني الحيرة ، إذ كيف أستطيع إنجاز رحلتي والوصول إلى كابل . وفي وسط هذه الحيرة سمعت صوتاً يناديني : « هل هذا هو البروفسور توينبي ؟ » أنا قادم من مكتب نائب المندوب السامي لمقابلتك . « كان في مقابلي لهذا المندوب حل لجميع مشاكلي المعلقة ، فقد ذلل مكتب المندوب السامي كل الصعاب التي اعترضت سبيلي فاتخذت مكاني في الأتوميس المسافر إلى كابل دون إبطاء .

## ١٥ - من فنون المرأة

ليس منا من لم يشاهد حشرة صغيرة أو عصفوراً وقد حبس في غرقة فأخذ يتخبط ذهاباً وحيثاً وصعوداً وهبوطاً ، ثم يضرب بجناحيه زجاج النوافذ طلباً للنجاة . ان هذا المخلوق البائس يرى من خلال زجاج النافذة عالماً خارجياً مبسوطاً أمامه ، وهو لا يدري ماذا يعوقه عن الخروج إلى هذا العالم الفسيح . ان كفاحه وضربه الزجاج بأجنحته في محاولة الخلاص لتمثل أقصى درجات اليأس والقنوط .

ان ما يحدث لمثل هذا الكائن الصغير يحدث مثله تماماً للانسان بل لقد جريت هذه الحيرة القاسية بنفسى في طور خام أثناء الانتقال من باكستان إلى أفغانستان عند أسفل المنحدر الغربى لمر خيبر .

إذا مددت بصرك من الجانب الباكستانى لخط الحدود بين باكستان وأفغانستان رأيت الجانب الأيسر من جبال هندوكوش الشاهقة التى تشرف على وديان نورستان . ولو أنك استطعت الارتفاع قليلاً لتكشفت أمام ناظريك كل تلك الكتل الجبلية الهائلة المكسوة بالثلوج . بل قد تستطيع مشاهدة نهر كابل وهو يغوص ويختفى فى خائق لا يظهر منه مرة ثانية إلا فى ورسك على الجانب الباكستانى من خط الحدود . ومن الناحية اليسرى ترى مشهداً آخر ، ذلك هو صخرة عالية فى إقليم بهستان يتوجها حصن من عهد الامبراطور أسوكا - وقد تحاول ان تمد بصرك إلى ما وراء ذلك ولكن يحول دون ذلك السور الجبلى الشاهق الذى يكون الجانب الشمالى لمر خيبر . هنا لا يسعك إلا أن ترد الطرف فى حيرة وقلق وهنا للمرة الثانية ينتابك شعور الطائر الذى حبسته فى حجرة فأخذ يخبط زجاج النافذة بجناحيه فى محاولة يائسة للنجاة ان هذا الشعور الذى ينتابك نوع من الكلوستروفوبيا ، وهو جنون الخوف من الأماكن المغلقة . إنك تخشى أن تظل حياً بين هذه القمم الشاهقة أبد الدهر . ولن تشعر بالراحة

من ذلك الهم يثقل صدرك إلا إذا انحدرت إلى جرود ولم تجد أمامك ما يعترض  
سبيل الفرار من هذه المصيدة الجبلية .

لقد اقتربت من جرود فامتعت وأحسست بالحياة تدب في عروقي مرة ثانية  
ولم يكن من السهل الانتقال إلى أفغانستان عن طريق جرود لولا أني كنت قد  
حصلت على تصريح بذلك من القنصلية الأفغانية في بشاور . أما وقد أعددت  
العدة الكاملة لرحلتي إلى كابل فلم يعد هناك ما يحول دون الشروع فيها . تقدمت  
بنا السيارة إلى الحدود الأفغانية ، وهنا تكشفت لنا نورستان جميعها وقد كستها  
الثلوج ، كما بدا نهر كابل وكأنه قضيب من الفضة وسط الصخور ثم اختفى بعد  
قليل في خائق ورسك .

تخيلت أن كل شيء أصبح سهلاً وأن الطريق إلى كابل صار مضموناً ، وفجأة  
اعترضت سبيلنا كتل من الصخور دفعتها السيول الجارفة من أعالي الجبال وأخذت  
سيارتنا تكافح لشق طريقها وسط هذه الكتل الصخرية . وأخيراً تخلصنا من  
السيول والأحجار وبدأت استعين بهمتي ولم أكن أعرف ما تنخبئه لي المقادير .

أن الطريق من طور خام إلى جلال آباد يسير في ممر عريض بين سلسلتين  
جبلتين تعلوهما الثلوج ، وهي صفد كده عن اليمين وهندوكوش عن اليسار ، وفيما  
وراء جلال آباد ينقسم الطريق إلى شعبتين أحدهما تسير في وادي نهر كابل  
والأخرى في وادي صورخاب وهو أحد فروع نهر كابل .

وهنا طريق معبد في هذه المنطقة ، ولكنه بعيد عن خوائق نهر كابل .  
ذلك أنه من الأفضل شق الطرق فوق ممر خيبر بدلاً من خائق ورسك . ومنذ  
الانتهاء من سد ورسك امتلأ هذا الخائق بالمياه المتجمعة وراء الخزان بحيث  
لم تترك مسافة لشق طريق بين البحيرة الصناعية التي كوتها مياه الخزان وسفح  
الجبل . أما فيما وراء جلال آباد فإن الطريق المشقوقة هناك تترك مسافة كافية  
بينها وبين نهر كابل . والطريق القديم كان هو الآخر يتجنب الاقتراب من نهر  
كابل . فيسير في أعالي وادي صورخاب متجهاً إلى ممر خور كابل .

وفي هذه المنطقة أنشأ أباطرة المغول حديقة امبراطورية كانوا يستريحون فيها عند اتقالمهم من دلهى الى كابل في عربات يجرها الثيران أو الفيلة ، والغريب أن الطريق الحديث يقترب في تهور من الشاطئء الأيمن لنهر كابل ويسير في نفس هذا الاتجاه حتى يصل إلى مدينة كابل . ولكنك ما أن تبلغ ملتقى نهر كابل بنهر صور خاب حتى تجد نفسك أمام خاتق آخر يكاد يتلع النهر والطريق معاً .

وان نهر كابل نهر غريب التكوين . وإن كنت قد شاهدت نهر السانت لورنس فيما وراء شلالات نياجارا . فما عليك الا أن تتخيل ضيق النهر الى الثلث مع الاحتفاظ بقوة اندفاع التيار وهذا يعطيك فكرة عن نهر كابل وتكوينه .

لقد اقتربت من النهر وشاهدت بنفسى كيف تندفع تياراته قوية جارفة في زججرة وهدير يبعث في النفس الرهبة ، أما منظر أمواجه الصاخبة المتلاطمة فيثير في القلوب الفزع .

لقد رأيت هذه الأمواج العاتية تتدافع في حركة دائرية قتنش الطريق الذى كنا نسير عليه بجانب النهر نهشاً . وهنا وضعت وزارة الاشغال صفا طويلا من الاحجار لتكون حدا فاصلا بين الطريق الآمن والموت المحقق وسط الأمواج الغاضبة . ولما كانت سيارتنا عريضة الجوانب فقد أصبحت بين خطرين داهمين عن يميننا وثماننا أحدهما خطر الجبال الشاهقة والآخر خطر المياه الدافقة . لقد كنت في طفولتى أحس نشوة قوية عندما أذهب لمشاهدة فرقة المدفعية الملكية الراكبة أثناء المناورات العسكرية السنوية فى انجلترا . كان رجال المدفعية الراكبة يسرون على حافة مرتفع يذكرنى به الآن الطريق المحاذى لنهر كابل . ولكن هناك فارق كبير بين الحالىن ، ففى انجلترا شاهدت لهذه المواقف الخطرة . أما هنا فانا بشخصى أمر بالتجربة المرعبة .

وحتى لو سرتنا هنا فى الطريق الآمن الذى حددته لنا الدولة ، فنحن لسنا فى أمان من عدوان النهر والجبل . ذلك أن النهر ينهش فى الشاطئء ، قد يكون من القسوة بحيث يسبب انهيار الشاطئء . أما الجبل فلا يزال يهدد بأسقاط كتل

صخرية . وهكذا كنا بين خطرين محدقين . ومن حسن حظنا ان كان هناك فوج كبير من عمال الطرق ينقلون الصخور المنهارة من الجبل لردم الحفر التي سببها انهيار الشاطئ . ويبدو من محتم أنهم من العناصر شبه المنغولية التي تقطن في اقليم هزاراجات . ولقد شاهدنا مدير الأشغال العامة بين العمال يراقب عمليات الاصلاح المستمرة . وتصادف أن ألقيت نظرة على احد الجروف المنهارة من شاطئ النهر فارتعدت خوفا من هول المنظر ولكن هؤلاء العمال الذين لا يعرف الخوف سيلا الى قلوبهم كانوا عاكفين على عملهم الخطير المضى وكأنه ليس هناك ما يفرعهم .

وعندما وصلنا سارو بي اقترب النهر من الجبل بحيث لم يترك طريقا لشخص يسير على قدميه وهنا كان لزاما علينا أن نغير طريقنا ونتجه يسرة نحو ممر لا تلقاند .

بدأنا مسيرنا في هذا الطريق الجديد على سفح متدرج الارتفاع ، ولكن بعد قليل انتهى هذا السفح المتدرج وألفينا أنفسنا في طريق متعرج في سفح السلاسل الجبلية . وبعد قليل عدنا مرة ثانية الى وادي نهر كابل ولكن على ارتفاع كبير .

نظرت الى أسفل فإذا بنا نسير فوق خائق تانجي جارو ثم تلفت الى أعلى فوجدتنا نواجه جبال هندوكوش عالية شامخة فوق وديان نورستان . لقد استطفنا حتى الآن أن تتجنب مياه النهر الصاخبة ، ولكننا لم نستطع تجنب الصخور المنهارة من الجبل . أضف الى هذا خطرا آخر وهو السيول التي كادت تدمر الطريق في كثير من الأماكن . وهنا كان علي السائق أن يسير بمهارة في مجرى السيل بين كتل الصخر المتناثرة .

ولما وصلنا جلال آباد أصبحنا نتصيب عرقا رغم أني كنت قد خلعت سترتي وبقيت في القميص والسراويل . ولكننا لما تقدمنا صعدا في اتجاه ممر لاتاباندند عدنا مرة أخرى نلتف في معاطفتنا اتقاء للبرد . وهنا شاهدت ملاحظة غريبة وهي أنه رغم اشتداد البرد فقد ظل الماء في راياتوز الشيارة يغلي . ولما هجمنا

قليلاً أبصرت شيئاً أثار إعجابي . ذلك أنه كان هناك جماعة من الرعاة  
وقد نصبوا خيامهم على سفح الجبل وأخذوا يستعدون لقضاء الليل بين قطعانهم  
من الأغنام والبقر .

سرنا تتخبط متحسين طريقنا في الظلمة الموحشة والمسالك الخطرة حتى  
تنهنا الى صوت السائق يرتفع عالياً « أنوار كابل » .

أخيراً وصلت كابل وأنا فاقد الوعي قد تسلقتني يد رحيمة أفرغت في جوفى  
بعض الويسكى بالصدود ، ثم هلت الى فراش لين ووضعت تحت أقدامى زجاجات  
الماء الساخن وأوقدت التيران لتدفئة المكان . وعندما افقت خيل لى أنى فى  
منطقة قطبية .

عجيب أمر هذه البلاد ! أين عشية وضحاها انتقل من حر راجاستان اللافح  
الى برد كابل القارس ؟ كل شئ قد تغير ولم يعد هناك ما يذكرنى براجاستان  
الا صوت المدهد .

## ١٦ - باروبا نيزواي (أفغانستان)

وقفت على شرفة في اصطاليف وسرحت بصرى نحو الشمال الشرقى فوق سهل كوه دمان . كان يحجب الأفق الشمالى سور مرتفع مكسو بالثلوج هو سفح جبال هندوكوش .. وهى هنا ليست شاهقة العلو كما هو الحال عند نورستان . ومع ذلك فهى من العلو بحيث تتمتع حتى على النسر . لقد أطلق عليها الأغريق اسم باروبانيزوس . وهذا معناه فى لغة الأفستا « جبل أعلى من أن يخلق فوقه النسر » هنا تقف باروبانيزوس (هندوكوش) شاهقة تحجب الأفق من الجانبين الشرقى والغربى والمرجح أن هذا المكان هو ملتقى نهر غور بندو يانجير . وكل من هذين النهرين يجرى نحو ممر جيلي سهل اجتيازه سيراً على الأقدام أو على ظهور الحمير . وقد ظل ملتقى هذين النهرين ممراً استراتيجياً هاماً حتى ظهرت مدينة كابل . فغيرت اتجاه طرق المواصلات من مجراها الطبيعى إلى ذلك الوضع الجديد . ولم تكن مدينة كابل مركزاً استراتيجياً أو سياسياً طوال أربعة عشر قرناً تبدأ بالقرن السادس قبل الميلاد . بل كان المركز السياسى والاستراتيجى الهام يجمع مدينتين عند ملتقى نهر غور بندو ونهر نيجيز . وقد أطلق دارا على هاتين المدينتين اسم كايشار كانيش ، وتعرف آثارها الباقية اليوم باسم بجرام وقد وصلت المدينة المركبة أوج عظمتها فى القرن الأول والثاني الميلادى عندما كانت عاصمة الإمبراطورية عظيمة تمتد من نهر آمور — داريا حتى نهر جينا . وبناء هذه الأمبراطورية هم الكوشان وهم من الرعاة الرحل القادمين من أواسط آسيا وقد شقت البوذية طريقها عبر اروبا نيزواي أثناء رحلتها من الهند إلى الصين وأواسط آسيا .

ولا يغيب عن ذهننا أن امبراطورية الكوشان كانت وريثة لامبراطورية الأغريق فى هذه المنطقة .

وفي خلال وقوفى فى الشرق فى اصطاليف سرحت يعبرى فى السهل والجبل والمنظر الطبيعى الخلاب فارتسمت فى مخيلتى صورة لتلك الأعمال الباهرة التى كان أبطالها أولئك القادة العظام من أمثال الاسكندر وديمتريوس وهيرمايوس .

وعندما بلغ الأغرقيق بلاد بارو بانيزادى بعد أن اقتحموا جنوب غرب آسيا قادمين من موطنهم حول الدردنيل ، شعروا لأول مرة بالأنس والراحة لما بين هذه البلاد وبلادهم من شبه كبير . فالسهل الذى تحيط به الجبال ذكرهم بأورديا وتساليا وكروم أفغانستان ذكرتهم بأن الإله ديونيس لا بد وأن يكون على علم سابق بفتوح الإسكندر فى آسيا .

لقد أقام الإسكندر مستعمرة اغريقية فى مجرام . وفى القرن الأول الميلادى كان الأمير الأغرقيقى خرمايوس لا يزال يحكم هذه البلاد بعد أن انتهى حكم الأغرقيق فى كل بقعة أخرى من بقاع المعمورة :

ويقال أن هرمايوس قد آخى الكوشان الذين يقيمون على الجانب الآخر من الجبل . ولا شك أن قوة هرمايوس كانت ضئيلة إذا ما قيست بقوة الكوشان ولكنه على أى حال كان يته مفتاح الطريق إلى آسيا الوسطى والهند ، ولا عجب إذن أن يعمل الكوشان على خطب وده . والكوشان مثلهم فى ذلك مثل الرومان - كانوا من عبي الهلينية .

وهكذا نجد الحضارة الاغريقية تزدهر فيما بين أمورداريا وجنا قبل ما ازدهرت على شواطئ البحر الأبيض . وتظل فى ازدهارها فترة طويلة بعد انتهاء حكم الأغرقيق .

لقد ارتسمت فى مخيلتى وأنا واقف فى شرفتى فى اصطاليف صورة الإسكندر وهو يعبر جبال هندوكوش من سهل كوه دامان لينزو بقطريا من جهة الجنوب وتذكرت ديمتريوس ملك بقطريا الأغرقيقى فيما بعد وهو يعبر نفس الجبل من الشمال إلى الجنوب بعد عبور الإسكندر له بقرن ونصف عندما كان فى طريقه لغزو الهند . ولقد نقل ديمتريوس هو وخلفاؤه الأسلحة الاغريقية والنقود

الإغريقية إلى قلب الهند فكان لها هناك أثر أطول مدى من غزو الاسكندر  
للمشارف الغربية لشبه القارة الهندية .

وتثبت لنا النقود الجميلة التي خلفها الغزاة الإغريق البقطريانيون في الهند  
والفن المشيع بالروح الهلينية الذي خلفه إغريق بقطريا وخلفاؤهم من الكوشان .  
ما كان للحضارة الإغريقية من أثر بعيد المدى في بلاد باروبا نيزداى  
( أفغانستان ) وبلاد جاندارا عند ملتقى نهر كابل بنهر السند .

لقد ظلت طوال الخمسين عاماً الماضية أدرس ذلك الجانب من تاريخ العالم  
في الكتب وعلى الخرائط . وأما هنا في اصطاليف وأنا واقف على الشرفة  
فيمكنني أن أجمع هذا كله في طريقة عين واحدة تغني عن دراسة المجلدات  
طوال خمسين سنة .

## ١٧ - الممر الأراكوزي

تقع هضبة إيران بين أنهار السند وأمور داريا ودجلة وكأنها حصن هائل ، وتحف بها السلاسل الجبلية كأنها السور الذي يحمي جوانب الحصن ، ويحمي هذا الحصن من جهة الشمال الشرقي قلعة جبلية منيعة هي بلاد أفغانستان . ولكن الممرات التجارية في مثل هذا الحصن الطبيعي قليلة نادرة . وهناك واحد من هذه الممرات يتجه في منحني نحو الجنوب الغربي من كوه دامان الى قندهار ، وآخر يتجه من الجنوب الى الشمال مبتدئا من هاموني خلموند ثم هيرانت ومنها الى السهول الفسيحة الواقعة بين نهر أمور داريا وسرداريا .

وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة التي هطلت خلال شهر ابريل فقد قررنا أن نقوم بجولة دائرية في أنحاء افغانستان وذلك حتى نتيح الفرصة للجبال التي تكون العمود الفقري للبلاد ، أن تجف مما هطل عليها من مطر كي نستطيع عبورها بعد ذلك .

ولقد بدأنا رحلتنا من الممر الأراكوزي بقصد اتمام الرحلة عن طريق ممر هيرات . لقد كان الممران على طول العصور التاريخية طريقا حتميا لحركات الجيوش الزاحفة والقبائل الرحل المهاجرة والدعوات الدينية . وفي أثناء سيرنا في الممر الأراكوزي طرق أذني وقع حوافر خيل تصدر في أعالي الجبال . وهنا جمع بي الخيال وعادت بي الذكرى الى ذلك الماضي البعيد يوم تمزقت امبراطورية قورش المترامية الأطراف ، ثم أعادها دارا الفارس الى وضعها القديم . في ذلك العام شهد الممر الأراكوزي مناظر أحداث تاريخية حاسمة فقد كان ميدانا للصراعات بين قيافانا حاكم أراكوزيا الذي انحاز الى جانب دارا وفاهيازراتا

أحد المطالبين بعرش الطاووس ( عرش فارس ) ولقد أعلن فاهيازاراتا نفسه ملكا على اقليم فارس نفسه الذى كان يعتبر قلب الامبراطورية الفارسية . ثم أرسل فاهيازاراتا على عجل جيشا عن طريق الممر الراكوزى ليسحق جيوش فيفانا ويستولى على كايشا كاتيشى ( بجرام ) وهى المفتاح الجنوبى للمرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ولو نجحت استراتيجية فاهيا زاراتا لأصبح الربع الجنوبى الشرقى من الامبراطورية تحت رحمته . غير أن فيفانا أتخذ الموقف لحساب دارا فى آخر لحظة . فقد أوقف قوات العدو ومنعها من التقدم تحت أسوار الحصن الذى كان هدفها من الزحف ثم عقب على ذلك لهزيمتها ، وكان هذا ايدانا بتغيير اتجاه تيار الخطر وظلت المعركة على أشدها حتى انتهت بهزيمة ساحقة للحملة التأديبية التى كان يقودها فاهيا زاراتا وتشتيت شملها ، ولقد كانت هناك ثلاث ممالك حاصمة فى فترة لا تزيد عن ثلاثة عشر شهرا وكلها من أجل السيطرة على جنوب غرب آسيا .

ولقد قفز بى التفكير الى عصر أحدث نسبياً ، فشاهدت الاسلام يزحف عن طريق الممر الراكوزى الى غزنة فكابل فالمرات المؤدية الى ما فوق جبال هندوكوش ومن هناك ينحدر هابطا الى حوض نهر آمور داريا حيث يلتقى بدعوة اسلامية أخرى وصلت الى حوض ذلك النهر واستقرت فيه منذ مائتى عام قبل ذلك التاريخ . ولما التقى الاسلام المستقر فى الوادى الحبيب منذ مائتى عام مع الاسلام الهابط من فوق الجبال التى امتعت على النسر ، أقاما نطقا حول المرتفعات الواقعة بين سهل كوى دامان ووادى هيرات ولم يمض زمن طويل حتى تحولت بلاد القورى من خصم عنيد للاسلام الى بلاد تعشق هذا الدين الجديد وتهب فى حماسة وبطولة للدفاع عنه والدعوة له .

ان غزنة أكثر ارتفاعا من كابل . وكذلك نجد جميع المرات المؤدية من حوض نهر كابل الى حوض نهر هلمند أكثر ارتفاعا من غزنة نفسها ولكن الطريق الحالى الذى يمر بمدينة ورسك يجعل خط تقسيم المياه بين النهرين غير

محسوس لدرجة أننا لم ندركه إلا بعد أن تجاوزناه بمسافة طويلة . ومدينة غزة وقلعتها تحتلان في الوقت الحاضر مركزا استراتيجيا فريدا .

فهي تقع على آخر مرتفع في سلسلة جبلية علوية ممتدة نحو الجنوب الغربي ومن هنا فهي تشرف في هذه الجهة على مخرجين لطريقين رئيسيين يتأخران السلسلة الجبلية من الجانبين . والطريق الحالية هي الشمالية الغربية ولكن بقايا مدينة السلطان محمود الفزنوي بقصورها ومساجدها وما آذنها تدل على أن الطريق الذي في الجانب الآخر هو الذي كان يعتبر طريقا رئيسيا في عهده . ويلتقي الطريقان مرة ثانية جنوب غربي مدينة غزة ويكونان طريقا واحدا يسير في منخفض بين جبال هزارة جات في الشمال الغربي وجبل سليمان في الجنوب الشرقي . ورغم أننا في شهر أبريل فلا تزال السلسلتان مكسوتتان بالثلوج . وقبل أن نصل إلى [مقر] أخذ السهل يضيق شيئا فشيئا حتى أصبح يشبه عمرا جيليا تحف به السلاسل الجبلية من كلا جانبيه .

وهذه المنطقة المعروفة بوادي نهر ترنك ويلفها المسافر قبل دخول مدينة مقر ، ولا يغادرها إلا إذا أصبحت مدينة قندهار على مرأى منه ، وترنك مجرى مائي ليس كبير الأهمية . ففي هذا العام الغزير الأمطار لم يستطع أن يروي أكثر من بعض حقول القمح في حوضه الأسفل . ومع ذلك فله أهمية كبرى كطريق للمواصلات . ذلك أن واديه لا تتخلله الحواقي التي تعوق الانتقال كذلك يبلغ من سهولة الأرض وانبساطها أنك تنتقل عبر خط تقسيم المياه بين نهري ترنك وغزنة دون أن تشعر بأي فارق في مستوى سطح الأرض . كذلك إذا قارنا بين نهر هلمند وفرعه أرجاندا ب نجد أنه ينتفع بمائهما إلى حد كبير ولكن ترنك يتفوق عليهما في أن واديه أصلح للمواصلات ولقد تستطيع أن تصعد في وادي أرجاندا ب على ظهور دواب الحمل حتى تبلغ وادي ترنك ولكن إذا تقدمت صعدا في وادي هالموند فسوف ينتهي بك إلى زقاق مغلق حيث تقوم في وجهك جبال هزارة جات الشاهقة كسور لا يمكن اجتيازه .

ولكن إذا صعدت في وادي ترنك تجد نفسك في غزة ، وغزنة هي مفتاح الطريق إلى كامبل ثم إلى كايشار كانيش وبقطريا . وهكذا نجد أن نهر ترنك لا مثيل له كطريق للمواصلات في هوض نهر هلمند بأجمعه .

## ١٨ - تقسيم مياه بشرى

ليس الماء والزئبق هما وحدهما الشيء الذى يتدفق ، فقطيع الأغنام وأفواج الرعاة الرحل تتدفق . فى الزمن الماضى خلال شهر مارس من كل عام كان الباشتون او الباختون الرحل ( ويطلق عليهم اسم البونده شرق ممر خير والكوشى فى الجانب الآخر من الممر ) . يتدفقون كاسراب من ممك السالمون فوق مرتفع من الأرض خلف الحرم الجامعى لجامعة بشاور . وكان مسيرهم شمالا الى الغرب نحو أفغانستان وهم قادمون من باكستان أو من الهند .

أما اليوم فقد قابلت جماعات أخرى منهم على الطريق بين [مقر وتمدهار] وفى الماضى كانوا يتدفقون صاعدين فوق المرتفعات ولكنهم الآن يتجهون من الجنوب الغربى نحو الشمال الشرقى . وهكذا وجدتني أعبر خط تقسيم مياه بشرى بين ممر خير والممر الأركوزى . ولقد بلغت الجماعات التى قابلتنا هذا العام هى وحيوانها من الكثرة حداً اضطرنا الى أن نوقف سيارتنا فترة طويلة حتى تمر القافلة . وقد لاحظت أن هؤلاء الباختون يحسنون معاملة الحيوان الى حد العناية به أكثر من العناية بأنفسهم . ومع قسوة الطبيعة ووعورة المسالك وخشونة الأرض فقلما تجد أحد هؤلاء الرعاة ممتطياً ظهر حيوان ، وبينما يسير الأدميون حفاة تجد الفصائل ( جمع فصيل وهو الجمل الصغير ) راقدة فى سلال كبيرة معلقة فوق ظهور أمهاتها ، فإذا ما اشتد غود هذا الفصيل واستطاع المشي دثروه بغطاء يبرز سنامه ويقى جسمه من الزمهرير . لا بل ان الجمال الكبيرة هى الأخرى تلبس كيساً من الخيش ليقىها شر البرد عند سيرها فى المرتفعات . أما الجداء والجمالان ( جمع حمل وهو الحروف الصغير ) فيحتضنها الأدميون ويحملونها كما يحملون أطفالهم .

وقفت مع جماعة من الأطفال واذا بفتاة من بينهم تحديق في وكأن بيني وبينها  
رابطة دم . أمضت النظر في الفتاة وملاعها فإذا هي صورة طبق الأصل لإحدى  
حفيداتي .

أضيف على هذه الفتاة الباختون شيئاً من الشقرة أو أصبغ وجه فتاة انجليزية  
بحيث يميل الى الدكنة وضع الفتاتين بجانب بعضهما وكأنك أمام توأمين ! ان هذا  
التشابه القوي هو أنصع دليل على وحدة الجنس البشري ، على الرغم من تلك  
الحواجز المصطنعة التي يقيمونها حوله فيقسمونه الى شعوب مختلفة .

ترى كم مضى من الزمن على أجداد هؤلاء الباختون منذ أن اتخذوا طريقهم  
فوق جيل هندوكوش وانحدروا الى مواطنهم الحالية جنوب الجبل ؟

قد نستطيع القول بأن هؤلاء الباختون هم سلالة أخلاط من الغزاة الذين  
اتخذوا اللغة الباختونية وأسلوب الحياة البدوية التي نشاهدها اليوم بين هؤلاء  
القوم . ولا بد أن تلك الاخلاط من الغزاة جاءت فوجاً تلو فوج من اقليم  
المراعى بآسيا الوسطى ، فدفع القوى منها الضعيف حتى استقر به المقام على  
أطراف الاقليم أو فيما وراء هذه الاطراف .

وفرض آخر وهو أن بعض العشائر الزحل فضلت المراعى الجبلية فيما بين  
نهرى أمور داريا وهلمند على مراعى سهول آسيا الوسطى . ذلك أن هذه  
العشائر قد تجدد في المناطق الجبلية من المراعى الوفيرة الحاضرة ما يفرها بالانتقال  
هي وقطعائها نحو الجنوب والشرق من الوادى الأدنى لهارى رود .

وهذا هو الطريق الذى تبعته أفواج الساكا في القرن الثانى قبل الميلاد .  
عندما اشتد عليها ضغط عشائر اليوشى غادرت مواطنها بين حوضى سىرداريا  
وآمورداريا وسارت جنوباً في حوض نهر هلمند حتى بلغت ما هاراشترا .

في هذا الصباح وأنا في طريقي الى مقر قندوهار شاهدت صورة طبق  
الأصل لمجرات الشعوب التى غيرت وجه التاريخ منذ واحد وعشرين قرناً مضت

## ١٩ - قندهار :

ان السائح الذى يريد دخول قندهار الحديثة قادماً من غزنة ومقر عن طريق  
المر الأراكوزى سوف يصل إليها دون أن يدرك السر فى إنشاء هذه المدينة  
الشهيرة فى مكانها هذا . انك على قرب من مطار قندهار تجد الطريق ينحرف  
بعيداً عن شاطئ نهر ترنك بعد أن لازمه مسافات طويلة . والطريق هنا يرتفع  
تدريجياً فى سهل زراعى فسيح ثم يعبر قناة كبرى للرى . ولما كان نهر ترنك  
ضئيلاً بمائه فلا بد للقناة أن تستمد ماءها من مصدر آخر غيره .

وإذا سرحت يصرك حتى الأفق لا تجد أثراً لذلك المصدر الآخر . ولكن  
وراء الأفق سلسلة من الجبال قليلة الارتفاع ومن خلفها جيلان يرتفعان أفقياً  
وسط الوادى . هنا يعترض الرؤيا حاجز من الأشجار وينحدر الطريق إلى  
مدخل المدينة وقد صفت به الأشجار من كلا الجانبين ومن خلف الأشجار  
صفوف من البساتين النظرة ولا تزال بين الأشجار والبساتين حتى تستقر  
فى المدينة فاذا خرجت من المدينة مرة ثانية وجدتك أمام أحد الجبلين القائمين  
عمودياً وسط السهل . وهذا الجبل يشبه سفينة حربية مصفحة من مخلفات الربع  
الآخر من القرن التاسع عشر . وله طرف مدب بارز يشبه مدك هذه السفينة  
المصفحة وينتهى عند الطريق إلى قندهار . على هذا الطرف المدب حفر الأمباطور  
المغولى بابر أربعين درجة ضخمة أطلق عليها اسم شهيل زنيه . وتؤدي الدرجات  
الأربعين إلى كوة أو محراب سجل فيه الأمباطور بابر أخبار فتوحه فى الهند .  
ثم جاء أكبر حفيد بابر فأضاف إلى هذه النقوش والكتابة الأثرية مسجلاً ما قام  
به هو من غزوات وفتوح . وأخيراً جاء أمان الله خان ملك أفغانستان منذ عهد  
قريب فلم يصف كتابات ولا نقوشاً ولا زخارف ولكنه زود الصخر بحاجزين  
من القضبان الحديدية يستعين بهما المشاهد فى تسلق الدرجات . ومشاهدة آثار  
الأمباطورين بابر وأكبر .

فإذا ما وقتت على الدرجة العليا وسرحت بصرك فيما حولك انكشف لك الطريق بين غزنة وقندهار ، وأدركت أن قندهار الحالية أقيمت على أنقاض المدينة ذات الأسوار والميادين الأربعة التي سبق أن شيدها أحمد شاه عبدلي الذي أنشأ مملكة أفغانستان في القرن الثامن عشر . ولقد قام مهندسو العصر الحديث بهدم أسوار مدينة أحمد شاه ولذلك يصعب عليك ملاحظة بقايا المدينة القديمة عند دخولك إلى قندهار الحالية ولا تتكشف لك مواضع هذه الآثار إلا إذا صعدت الدرجات الأربعين . والغريب أن منظر قندهار القديمة [ أي قندهار القرن الثامن عشر ] يذكرك بمنظر جايور في راجاستان . ويبدو هذا التصميم في هندسة البناء غريباً في آسيا لأنك ما أن ترى مدينة آسيوية أقيمت على هذا التخطيط الهندسي الا ويخيل لك كأن مهندساً اغريقيا قد جاء من بلاده الى قلب آسيا حاملاً أوامر من الاسكندر الأكبر بتخطيط المدن على هذه الصورة .

ومدينة أحمد شاه نفسها قامت على انقاض مدينة سابقة لها في نفس المكان ، ويبدو أن أحمد شاه قد أزاح موقع المدينة قليلاً عن خرائب المدينة القديمة وأقامها في مكان مكشوف عندما يحكم المنطقة الواقعة بين مشهد ولاهور . ولما هبطت الدرجات الأربعين بادرت بزيارة المدينة القديمة . والطريق إلى هذه المدينة مهد بسبب وجود ضريح لأحد الأولياء يحج اليه الأهالي من جميع الأماكن المجاورة . أما المدينة نفسها فيحيط بها سور ضخيم من الأجر وبداخلها خرائب قلعة قديمة مقامة على تل أثرى . ولقد لاحظنا أن استحکامات المدينة مبنية من الحجر بدل الأجر وخاصة على مقربة من السفح الجبلي الشديد الانحدار وفي أعلى الأسوار أقيم حصن منيع زادته الطبيعية قوة ومناعة .

هذا وان ارتفاع التل الذي أقيمت عليه القلعة ليدل على عمر المدينة القديمة ولكن هناك أثراً آخر يدل على عمر الطريق الذي يلتف حول مقدمة الجبل والذي أقيم عليه الطريق الحالي بين قندهار وجرشك فعلى المنحدر الجبلي من جهة الشمال الشرقي اكتشفت حديثاً كتابة أثرية من عهد الأمبراطور أسوكا الهندي . وهي مكتوبة بلغتين إحداها الآرامية وهي اللغة الرسمية لامبراطورية

فارس المتحلة والأخرى الأغريقية اللغة الرسمية للدولة السلوقية التي قامت على  
أقاص القسم الشرقي من الإمبراطورية الفارسية . وهذه الكتابة تدل على  
أقصى مدى بلغه اتساع إمبراطورية أسوكا من جهة الغرب وهي دليل على أن  
أراكوزيا جميعها كانت ضمن الأراضي التي تنازل عنها سليفوس « المظفر »  
خليفة الاسكندر الأكبر إلى شاندراجوتيا جد الإمبراطور أسوكا .

وبعد أن زرنا قندهار القديمة والوسطى والحديثة واكتشفنا الكتابة الأثرية  
التي خلفها الإمبراطور الهندي أسوكا تبين لنا السر في إقامة مدينة قندهار  
في مكانها الحالي .

ان نظرة إلى الخريطة لتدلنا على أن نهر هلمند له فرع في البنجاب شانه  
في ذلك شأن السند وأن موقع مدينة قندهار هنا يشبه موقع مدينة مولتان  
في حوض السند . فمدينة قندهار تقع في وسط دلتا عند ملتقى أفرع هلمند ، مثل ما  
تقع ملتان عند ملتقى فروع السند الخمسة التي سمي إقليم البنجاب باسمها ( يسج آب  
معناها الأنهار الخمسة ) .

ولما كان نهر ارجاندا ب هو أهم فروع نهر هلموند فقد قمنا برحلة جبلية  
في اليوم التالي حتى بلغنا وادي أرجاندا ب الفسيح وقد كستة الخضرة وحقول  
القمح وبساتين الفاكهة والأحراش .

قد يعشق الانسان النهر ، وهذا إن صدق فأنا بصدق أؤلا على نهر أرجاندا ب  
فهو ينساب وسط بساط سندس أخضر تلبسه صفحة مسجدية من الرمال الصفراء  
النقية . ولقد سحرنا منظره حتى ظللنا ساعات طويلة مأخوذين بسحره من فوق  
مرتفع باباولي ولو خلد الأغريق نهر ارجاندا ب في أساطيرهم لشبهوه بحورية  
البحر وقد ارتمت في أحضان محبوبها [ أيتياندوس ] وهو الاسم الذي أطلقه الأغريق  
على نهر هلموند .

وقمنا عند بابا والي نراقب هذه الحورية وهي تجري مسرعة نحو جيبها  
ايتياندوس ( هلموند ) ، وفي اليوم التالي شاهدنا الحورية تلتقي بنفسها بين ذراعي  
جيبها عند قرية يست .

مررنا سراعاً بالدراجات الأربعين التي نحتها الامبراطور المغولي بابر في صخر الجبل ، وغادرنا الأرض إلى منطقة شبه صحراوية بها قليل من العشب ولكنه على أى حال كاف لرعو القم والجمال . وبعد أن عبرنا أحد مجارى السيل دخلنا قرية كشك ناخوذ في طريقنا إلى لشكرجا في الزاوية القائمة عند ملتقى نهري ارجانداب وهلموند . ووجدنا لدينا متسعاً من الوقت لزيارة مكان معركة مايواند حيث استطاعت قوات التحرير الأفغانية أن تفاجيء حملة تأديبية بريطانية وتهزمها هزيمة ساحقة في ٢٧ يوليو ١٨٨٠ وأحب أن أقدم للقارىء وصفاً مجملاً لسير المعركة .

كان قائد قوات الاحتلال البريطانية في قندهار قد تلقى أنباء بأن قوة أفغانية زحمت على قندهار عن طريق هيرات فأرسل قوة من رجاله لتشتيتها .

وزحف الجيشان كل في مواجهة الآخر متخذين أقصر مسافة بين المدينتين وهي طريق جنوبي غربي يسير في سفح جبال هزاره جات . ان مثل هذا الطريق يصلح للمشاة والفرسان أو للمدفعات الزاكية ، ولكنه لا يصلح مطلقاً للسيارات المدرعة والحمولات الميكانيكية التي تستخدم في الوقت الحاضر وعلى الرغم من أن البريطانيين كانوا يعلمون أن قوات التحرير الأفغانية قد بدأت الزحف إلا أنهم لم يتصوروا أن يجدوا أنفسهم أمامها وجهاً لوجه . دخلت القوتان في معركة وكانت الهزيمة في جانب البريطانيين . وقد استطاع روبرتس أن يجنب القوات البريطانية في أفغانستان كارثة محققة عندما قام بزحفه الشهير من كابل إلى قندهار . وعلى الرغم من أنه استطاع أن يمحو بعض آثار هزيمة مايواند إلا أن البريطانيين رأوا من الإصوب أن يتخلصوا من موقعهم في أفغانستان قبل قوات الأوان .

كذلك كان هناك غزو بريطاني آخر لبلاد أفغانستان لا يقل طيشا وسوء تقدير عن الغزو الأول . وإن كانت القوات البريطانية استطاعت هذه المرة أن تتجنب الخطر الذي أحرق بها عند عدوانها الأول على أفغانستان . ذلك أن هؤلاء البريطانيين كانوا قد تلقوا درساً قاسياً على أيدي الأفغان في مايواند .

ولقد شاهدنا النصب التذكاري الذي أقامه الأفغانيون بمناسبة انتصارهم على الإنجليز على بعد حوالي عشرة أو اثنا عشر ميلاً من كشتك ناخود ، ويقوم هذا النصب التذكاري في بستان مسور يطل على المقبرة التي دفن فيها الأفغان قتلاهم في المعركة . وهم يعتقدون أن هؤلاء القتلى ماتوا شهداء في سبيل الدفاع عن العقيدة . ولما كانت القوات البريطانية المهزومة قد فرت إلى قندهار تاركة قتلاها في ساحة القتال ، فقد قام الأفغانيون بدفن قتلى الإنجليز مثل ما دفنوا قتلاهم ، لابل أنهم أقاموا تذكراً لهؤلاء القتلى الإنجليز ، تقديرًا لشجاعتهم في القتال . وهذا دليل على خلق كريم أصيل في نفوس هؤلاء الأفغان .

وعندما وقفت أمام هذا النصب الذي أقامه الأفغان لقتلى الإنجليز في المعركة تذكرت مقابر الجند الألمان الذين سقطوا في ميدان المعركة في البلاد التي غزتها ألمانيا في الحربين العالميتين الأولى والثانية . حقيقة أن هؤلاء الجند الألمان قدموا أعز مالهيم وهو حياتهم ، ولكننا نسأل ماذا كان يفعل هؤلاء الفزاة الألمان في بلد غير بلادهم ؟ أن عدوهم كان يدافع عن وطنه أما هم فعمّ يدافعون ؟ .

ومن المحزن حقاً أن يلتقي الإنسان حتفه على أيدي أبناء وطنه ، ولكن أشد من هذا إثارة للحزن والأسى أن يفقد الإنسان حياته فداء لوطنه في حرب عدوانية يشنها هذا الوطن على بلد أجنبي .

وماذا يكون إحساسنا إذا علمنا أن ما لا يقل عن نصف الملايين التي لا حصر لها والتي سقطت صرعى في ميادين الحرب كانت تشن حرباً عدوانية لأحرباً دفاعية ؟ .

وإلى متى يصر العالم على الاحتفاظ بهذا الوضع الفاسد الذي لا يخرج عن كونه جريمة عامة تشترك فيها البشرية بأكملها ؟ .

## ٢١ - الشكرى بازار

انتقلنا من منطقة شبه صحراوية إلى صحراء جرداء مغطاة بالحصر والرمل لا أثر فيها للحياة . وفجأة شاهدنا عن يميننا طريقاً جانبياً يؤدي إلى ناحية ما ، وخيل إلينا أنه يؤدي إلى عالم آخر غير عالم الرمل والحصى الذي يحيط بنا من كل جانب . والواقع أننا ألقينا أنفسنا أمام عالمين لا عالم واحد : أما الأول فهو مدينة صناعية على أحدث طراز ، ومن خلفها خرائب من الآجر ، وتلك هي لشكري بازار . لقد كان هذا المكان مشقياً للأسرة الغزنوية ، أما المدينة الصناعية فهي تابعة لهيئة إصلاح وادي هلموند . وقد اتخذت المدينة الصناعية الجديدة اسم المدينة القديمة فأطلق عليها اسم لشكارجا . ولهذه التسمية مغزاها فإن مهمة هيئة إصلاح وادي هلموند أن تعيد هذا الوادي إلى ما كان عليه في الزمن السابق من نماء وإنتاج وعمران . لا بد وأن هذا الوادي كان في عهد الغزنويين ذا قيمة إنتاجية كبيرة بحيث يمون الأمير وحاشيته وحيشه طوال ستة شهور كل عام . ولم يكن أميراً ضئيل القدر لأن أملاكه كانت تمتد من خراسان حتى البنجاب .

بعد قليل من زيارتنا للسوق كنا على شواطئ نهر هلموند قبيل ملتقاه مع فرعه الكبير أرجانداب . وقد أقامت هيئة الإصلاح والتعمير قنطرة على النهر ولكنه اكتسحها بقوة تياره الجارف وبقيت الجزيرة الصغيرة التي كونها المجرى موطناً للحلوف البري .

وقفت أتأمل هذا النهر وكأنه فرس حر لا يريد أن يخضع لسلطان مدرجه .

قبل أن تصل التكنولوجيا الحديثة إلى أفغانستان كان الأفغانيون يعتمدون إلى ملاحظة الطبيعة كلما حاولوا إخضاعها لمنفعتهم ، بدلاً من أن يرغموها بالقوة على تنفيذ مطالبهم وقنع الراعي الباختوني أو التركماني بالتنقل وراء الطبيعة من نبع إلى نبع ومن مرعى إلى مرعى حاملاً معه أهله وأمتعته وقطعانه .

انه يسير في ركاب الطبيعة ، بدلا من أن يتوقع من الطبيعة أن تقدم عليه .  
أما الفلاح التاجيكي ( ابن تاجيكستان ) أو الأوزبكي ( ابن أوزبكستان ) فيقنع  
بالحصول على قليل من الماء من جدول أو مجرى مائي ، ويكفيه من الدنيا أن  
يروي قطعة متواضعة من الأرض الزراعية .

لكن هيئة إصلاح وادي هلموند شقت عصا الطاعة على الطبيعة وخرجت  
على تقاليد أفغانستان القنوعة ، لقد أصبحت قطعة من أمريكا طعمت بها  
أرض أفغانستان .

أن هذه الألفي كيلو متر من الطرق المعبدة في وسط الصحراء توحى إليك  
بانك في نيفادا لا في صحراء أراكوريا ، وهذه القنوات العديدة التي تمتد مئات  
الأميال قد اعتصرت مياهها من نهر هلموند .

أما الدكتور لالي الذي يشرف على مشروع إصلاح الوادي فهو أعجوبة من  
الأعاجيب . أدر قرص التليفون تجده على استعداد لتلبية طلبك ، انه على استعداد  
لإقامة كبرى على نهر ديلارام وهو على استعداد لشق قناة جديدة تتزع من نهر  
هلموند بعض مياهه الدافئة . وفي لمح البصر تجده يفعل في الصحراء المستحيل .

لقد تجولنا مرة فوق رمال الصحراء وحصاها وإذا بنا فجأة أمام قناة وماء  
وخضرة وحقول يانعة في نادي على . ولهذا المكان قصة فقد اكتشف كياوية التربة  
بعد تحليل تربة هذه المنطقة أن بها كل العناصر اللازمة لنمو النبات ، وأنه لا ينقصها  
إلا الماء لتصبح جنة خضراء . وهنا بادر المهندسون بجلب الماء من نهر هلموند  
بواسطة قناة بوغرا وهكذا انقلبت الصحراء عند نادي على إلى حقل خصيب .

وفي يوم آخر تبعدنا مجرى هلموند مسافة أربعين ميلا ولشد ما أثار إعجابنا  
أعمال إصلاح الأراضي التي قامت بها هيئة الإصلاح في شاملان ودرويشان .

ان هذه الأعمال الهندسية العظيمة موضع فخر لأفغانستان في الوقت الحاضر ،  
ويزيدك إعجاباً بها أن يقرن منظر القديم بالحديث - السكوبري أو الخزان الحديث  
بجانب المعنى القديم . ان الأمل الذي يراود هيئة الإصلاح هو أن تسير قدما

بمشروعاتها حتى منطقة الحدود الإيرانية الأفغانية ، ترى هل كلما تقدمت الهيئة  
بمشروعاتها تجد أمتها آثاراً تدل على أن الآباء قد سبقوا الأبناء إلى التعمير . ؟

لو أمكن زراعة وادي هلموند بأجمعه لما كفى ما ينتجه من غلة لتكوين  
عاصمة في مثل حجم لشكري الغزنوية ، فالقصور والساحات والميادين والتسكنات  
وميادين تدريب الجند تمتد مسافات طويلة على طول الشاطئ الشرقي لنهر  
هلموند . حتى بعد أن تصل إلى أقصى الطرف الجنوبي فإنك لم تصل بعد إلى  
نهاية المطاف فأمدته ثمانية أو تسعة أميال حتى تصل أخيراً إلى قلعة بست التي  
تشرف على ملتقى نهري هلموند وأرجانداب . وفوق ذلك فإن المثلث القائم بين  
النهرين قبل الملتقى مليء بالقلاع والقصور .

إن هذه المجموعة الكبيرة من المباني لمي أكبر دليل على عظمة فن المعمار  
في عصر الأسرة الغزنوية وفيها الضالة المنشورة للعالم الأثري . ولقد شهدت  
بداية عصر الساسانيين في القرن الثالث الميلادي ثورة في فن المعمار ممثلة في  
الأقواس والقباب التي حلت محل القوائم العمودية والأبنية المستقيمة الزوايا  
والرواقد الأفقية والاسقف الهرمية . وكان ما حققه آل ساسان نهضة كبرى في  
فن المعمار ولكن جاء الغزنويون بعد ذلك بثمانية قرون فابتكرت أختلتهم  
الحلقة فناً معمارياً جديداً يتمثل في الخطوط المنحنية بدلا من الزوايا المستقيمة  
التي سادت فن المعمار السابق . ونعتبر مدينة لشكري بازار الأثرية مثالا حياً  
لهذه المرحلة التاريخية الثانية في بناء الأقواس والقباب .

إذا ما تسلقت خرائب لشكري بازار وجست خلال أبنائها المتهمة فانك  
ترى منظراً ساحراً لنهر هلموند يجري تحت الجرف الكبير الذي أقيم عليه القصر .

والغريب أن هلموند لم يكن غادراً كثيراً من انهار أفغانستان وإلا لدفع  
مياهه تحت الجرف فانهارت قصور الغزنويين . كذلك لم يغير هلموند مجراه في  
هذه البقعة ويتعد عن القصور الغزنوية مثل ما فعل نهر جتنا عند نيودلهي حيث غير  
مجره وابتعد عن الحصن الأحمر الذي بناه أباطرة المغول .

وعندما تقف عند الجدول الذى كان يغزى حمامات الحريم فى القصر الغزنوى تجد النهر كأنه يحتضن الجرف دون أن يمسه بسوء مجاملة منه لهؤلاء الجميلات اللاتي جلسن فى حذورهن يتجاذبن أطراف الحديث منذ نصف وثمانمائة عام .

أن مهارة الانسان — حتى قبل عصر الآلة — لتفعل العجائب بمواد قد لا يتوقع منها المرء أى نفع . إن ذلك الصف الطويل من النلال السمراء هو دليل على أن المكان كان يوما ما مليئا بالحقول الخضراء . كذلك تشهد وسائل الرى الضئيلة فى المنطقة الواقعة بين الشكرى بازار وقلعة بست . ان هذه البقعة كانت فى إحدى فترات التاريخ تحوى حقول القمح وبساتين الفاكهة .

إذن ما الذى حدا بالغزنويين لتمضية نصف العام فى هذه البقعة الحارة الجرداء ، وإقامة مباني بها لا تقل عظمة عن مبانيهم فى غزنة نفسها ؟ هل ما جاء بالغزنويين إلى هذا المكان هو شدة رعايتهم لحريمهم وتجنبهم زمهرير الشتاء فى غزنة ؟ . إن هذا أمر بعيد الاحتمال ، فالغزنويون لم يكونوا أهل لين وطراوة ولا كان بهم طابع الأنوثة ، وإذن فلم يكن الدافع لاختيار الغزنويين لهذا المكان هو رعاية الحريم .

إن ما جاء بالغزنويين إلى الشكرى بازار هو فيلهم ، كانت أهمية الفيلة للغزنويين كأهمية آلات تسوية الأرض فى نظر الدكتور لالى رئيس هيئة تعمير الصحارى . فالفيلة لاغنى عنها فى الحرب . خاصة وقد كان الغزنويون يقومون بفتوحات فى الهند . ولكن الفيلة متعبة وإذا لم تزودها بمطايب العيش فلا قدرة لها على البقاء . ولو أن هذه الفيلة عاشت شتاء واحدا فى غزنة مع ما هى عليه من برد قارس لفنيت عن آخرها . هذا هو السر فى انتقال الغزنويين إلى وادى نهر هلموند الأدنى فى فصل البرد القارس فى غزنة .

ولقد أقنعى البروفسور شلومبرجر بعصمة هذا الرأى قائلا :

أتذكر أين كان الإغريق السلوقيون يحفظون فيلتهم ؟ .

قلت : انهم كانوا يحفظونها فى أيامنا .

وهنا أضاف شلومبرجر . نعم ان وادى أوروقتسى يجرى فى منطقة منخفضة هى فى الواقع جزء من الأخدود الكبير الذى يبدأ فى تركيا وينتهى فى نياسالاند . وأباميا تقع على حافة هذا الأخدود ولذلك فالجو فيها حار خائق حتى فى فصل الربيع وهذا هو الجو الذى يطيب للفيلة أن تعيش فيه .

ان الأماكن الصالحة لثوطين الفيلة نادرة فى سوريا وأفغانستان ، وكان السلوقيون أهل حرب يستخدمون الفيلة فى حروبهم كالغزنويين تماما ، وأذكر عندما كنت فى قندهار ، أن قرأت إحدى الكتابات الأثرية التى خلفها الامبراطور أسوكا وعرفت من مضمون هذه الكتابة الأثرية أن أول حاكم سلوقى « تنازل عن جميع ممتلكاته غرب قندهار وجنوب هندكوش إلى شندراجويتا موريا فى مقابل الحصول على خمسمائة فيل من فيلة الامبراطور الهندى .

ولم يكن المقابل هينا فى نظر الحاكم السلوقى ، فقد استطاع بهذه الفيلة أن يحرز نصرا ساحقا على عدوه انتيجون الأهور . وبذلك استطاع سلوقس أن يقيم دعائم امبراطورية كبيرة فوق ما يسمى الآن أفغانستان وشرق ايران .

وقد ظل السلوقيون منذ ذلك الوقت يعنون بالفيلة أشد العناية حتى أنه لما هزم الرومان انطيوخوس الأكبر ظل القلق يساور مجلس السناتور الرومانى بسبب وجود فيلة السلوقيين فى رحبة أباميا .

ولم يعطثن الرومان إلا عام ١٦١ قبل الميلاد حين أصدر بعض الحكام الرومان أوامره بقطع أوتار السيقان الخلفية . لفيلة أباميا ، وبذلك أصبحت هذه الفيلة عاجزة عن الحركة .

ولم يمض عام على هذا الحادث حتى تشتت ملك السلوقيين فضاعت منهم ميديا وبابل .

## ٢٢ - هيرات

أفغانستان غنية بمشاهداتها التاريخية : وليس هذا بعجيب فنذ فجر التاريخ وهذه البلاد معبر للشعوب من أهم معابر العالم . لقد كانت كابشا كانش الواقعة على ملتقى نهري غوربانند وبانجيز مركزاً سياسياً للعمليات العسكرية في ذلك العام ذى الشأن الخطير في التاريخ ، عام ٥٢٢ ق . م . والكهوف والتماثيل الضخمة في باميان شاهد حي على أن هذا المكان كان طريقاً رئيسياً مرت منه البوذية عبر جبال هندوكوش في طريقها من الهند إلى شرق آسيا . وطالما أدعت لنفسها لقب « أم المدن » ولكن هذه المشاهد التاريخية الثلاثة أصبحت اليوم في خبر كان ، أما هيرات فهي الوحيدة من بين المشاهد الأثرية الأفغانية التي لا تزال تحتفظ بقدر من الأهمية في العالم الحديث .

لقد كان تاريخ هيرات متصل بالحوادث لم تطلأ عليه فترة من الغموض والازواء — فعندما اجتاحت جنكيز خان العالم الإسلامي بمحافلته المغولية ، بادر حكام هيرات فقدموا له الطاعة والولاء ، وبذلك أنقذوا مدينتهم من الفناء الذي أصاب شهر جلجلا ، تلك القلعة المائلة التي كانت تشرف على وادي باميان .

أما تيمورلوك الذي وجه ضربة قاصمة إلى سبستان فانه كف عن تدمير هيرات بل ان خلفاءه أحيوا هذا البلد وزينوه . وهكذا تجد هيرات اليوم شاهد حي على مجد العالم الإسلامي في تلك الأيام السابقة قبل أن تحل به الكوارث .

إن قندهار هي الأخرى مدينة قديمة وهي لا تزال قائمة مثل هيرات ،

ولكن هيرات تمتاز بعذوبة ولين لا يتوفر لقندهار وبالاختصار ، كانت هيرات إحدى المدن الكبرى في دار الاسلام في عصر الخلافة الإسلامية .

وجغرافيو الغرب القدماء يعتبرون هيرات إحدى العواصم الأربع المحلية لخراسان . وخراسان في مفهوم أولئك الجغرافيين العرب تشمل ما يعتبر الآن أفغانستان وشمال شرق إيران . أما العواصم الثلاث الأخرى شقيقات هيرات فهي نيسابور ومرو وبلخ .

لقد شاهدت آثار نيسابور وبلخ ، أما مرو فهي داخل الحدود السوفيتية وإذن فلا أمل لي في مشاهدتها . علي كل لقد وجدتني في لهفة لرؤية هيرات العاصمة الرابعة لإقليم خراسان خاصة وأنها لا تزال قائمة ولم تنحدر بعد إلى صفوف المدن التاريخية المندثرة . عندما تقدمنا في سهل شين داو الأخضر الفسيح ازداد عجبى ، فقد كنا نقرب من خط تقسيم المياه بين أوراسكان ونهر هارى الذى تقع هيرات في واديه . ولم نشعر بأننا اجتزنا خط تقسيم المياه إلا بعد أن عبرناه وهنا وجدنا أنفسنا في واد متدرج الانحدار ينتهى بفضاء واسع من الأرض المكسوة بالعشب . وعندما فارقنا الوادى ألفينا أنفسنا نسير في ممر من أشجار الصنوبر يمتد عشرة أميال . ومن ممر الصنوبر انتقلنا الى وادى نهر هارى رود وهو نهر نخم ، وهو وممر الصنوبر معاً يعتبران مدخلا لمدينة هيرات الشهيرة .

لا أود أن أطيل في وصف مشاهد هيرات فهي أشهر من أن توصف ، ويكفى أن أذكر لك المسجد الجامع والقبعة الرشيقة التى بنتها الأميرة جواهر شاه والمئذنتان اللتان ترتفعان فوق ضريحها والمآذن الأربع المقامة فوق المدرسة القديمة التى اندثرت معالمها . كلها لا تزال قائمة ممتلئة بالحياة والفن .

وليس بغريب أن تضم مدينة جميلة مثل هيرات رفات كثير من عظماء الرجال .

فهناك مدفن جاي آخر شعراء فارس القدامى ومير على شير الأديب الذى كان له الفضل في النهوض باللغة التركية مدفون في هيرات ودوست محمد خان

مدفون في ضواحي المدينة ، وهو وعبد الرحمن خان يتنازعان لقب أعظم أمراء أفغانستان في أخطر مواقفها خلال القرن التاسع عشر ، حيث كانت أفغانستان كأنها حبة قمح بين حجري الطاحونة الريفاني والروسي . كذلك كان لهيرات الفضل في احياء فن جميل ابتدعه التيموريون ووصل به الصفويون إلى حد الكمال .

وإذا ذهبت اليوم إلى المسجد الجامع فسوف تجد الصناعات الماهرة الحديثيين يضعون القيشاني في الاماكن التي سقط منها القيشاني القديم بنفس المهارة التي كانت لدى آبائهم من قبل .

ولا يقتصر جمال هيرات على هذه التفاصيل وإنما يمكن جمالها الحقيقي في منظرها العام . ففي الركن الشمالي من الوادي تظهر مدينة السفوح السفلي لجبل هندوكوش . وفي المرتفعات الشمالية للمدينة شاهدنا ضريحين أحدهما للسيد عبد الله والآخر لتخت صفر ولا انسى تلك السويحات التي قضيتها مستمتعاً بجمال منظر ضريح تخت صفر ، ولولا أن خط السير أرغمني على مالا أحب لقضيت أياما بطولها أتردد على هذه الآثار الفنية الرائعة .

لطالما شاهدت وديانا جميلة من أحسن مكان لمشاهدتها ، فشاهدت وادي أسبرطة من مسترا ، وشاهدت سهلا بروضة من مقابر سلاطين آل عثمان ، كما شاهدت أخيراً وادي ارجانداب من بابا والي ، ولكن وادي هاري رود المجاور لهيرات كان يفوقها جميعاً في الجمال .

ذلك انك اذا شاهدت الوادي من تحت صفر فان منظر مدينة هيرات يزداد جمالا اذ يظهر لك كله في اطار واحد .

والذي يسترعى النظر أكثر من أي شيء وهو تلك القرى المبعثرة حول مدينة هيرات والاشجار التي تحيط بالقرى احاطة السوار بالمعصم .

ان النهر الكبير الذي تراه عريضاً هائلاً عندما تسير على شواطئه .

يتضاءل ويختفى وسط الاحراش وبساتين الفاكهة .

فاذا اتجهت يصرك الي الجانب الآخر فهناك يمر الصنوبر الذي  
ينحدر في تدرج حتى يصبح [بساطا سندسيا من العشب الأخضر ، إن  
هذا المنظر الأخاذ يمتد بك عشرة أميال ثم ينتهى بك فى أرض  
غير أرضك . إنه ينتهى بك عند مغيب الشمس علي الجانب الآخر من الحدود  
فى خراسان الفارسية .

---

## ٢٣ - عبور ممر سيزك

إن دخول هيرات من جهة الجنوب سهل للغاية ، فالممرات الجبلية منخفضة وهينة ، والطريق يسير خلال وديان مكشوفة وبعد زيارتنا لهذه المدينة اتجهنا نحو ذلك القسم من جبال هندوكوش الذى يحد وادى نهر هارى رود من جهة الشمال . إن ارتفاع الجبال هنا لا يزيد عن عشرة آلاف قدم وهو نصف ارتفاعها فى نورستان روتشترال . وقد أشار علينا حاكم هيرات بالانتظار قليلا لأن الأمطار سقطت قبل موعدها وعطلت طريق ممر سيزك .

ولكننا صممنا على السفر فى اليوم التالى مهما كانت العوائق ، وإذا كان سفرنا عن طريق ممر سيزك غير ممكن فلسنا فى غنى عن طريق آخر . ولكن المسألة ليست بهذه السهولة فالتقسيم الاثنوغرافى ( طبقا لتوزيع السلالات البشرية ) يجمع الاجزاء الجنوبية من جبال هندوكوش على خلاف لغوى تام مع الاجزاء الشمالية .

فى جنوب الجبال تنتشر اللغات الإيرانية : الفارسية والباشتور والبلوخي ، وهى تمتد جنوبا حتى سواحل المحيط الهندى ، أما فى شمال جبال هندوكوش فهناك الشعوب التى تتكلم التركية ، وهذه تنتشر شمالا حتى سكة حديد سيبيريا .

وإن سلسلة جبلية تفصل الإيراني من الطوراني ليس من السهل عبورها . ولكننا لم نقدر تلك المصاعب والعقبات عندما عقدنا العزم على الرحيل .

وعندما غادرنا هيرات مررنا ببساتين شهيداهى ، ومن هناك اتجهنا شمالا عن طريق فتحة فى المنحدرات الجبلية . وكان مسيرنا على العموم سهلا حتى

بلغنا مشارف ممر سيزك . وما أن بلغنا الممر حتى وجدنا انفسنا في مواجهة الجليد . والتف الطريق وتعرج ، ومع كل انحناءة أو تبرج ازداد عمق طبقة الجليد . ولو استمر ازدياد عمق طبقة الجليد بهذا المعدل لغاصت فيه سيارتنا تماما ، خاصة وقد غطى الجليد قيلنا خمسة لوريات ، شاهدناها مغروسة تماما وسط طبقات الجليد . وبعد صعب ومشاق وصلنا إلى أقصى ارتفاع قدر لنا أن نبلغه وهو ٧٩٥٠ قدما .

خيل إلينا أن متاعبنا قد انتهت ، ولكن ما أن بدأت الانحدار نحو الجانب التركي من الجبل حتى وجدنا المنحدر شديدا والجليد كثيفا . أخيرا وصلنا إلى مرج به عشرة خيام سوداء وبعض الأغنام . هرع إلينا الرجال ومع كل منهم جاروفا لمساعدتنا ، ذلك أن حاكم هيرات كان من الحصافة وبعد النظر بحيث أرسل لنا هذه النجدة في الوقت والمكان المناسبين .

وبعد ما خلصنا رجال النجدة من الطين والجليد وصلنا أول قرية تنكلم اللغة التركية وهي قرية لاما . ولما كانت وجهتنا قلعة « نو » فقد سرنا وسط متاعب لاحصر لها من فيضانات ومخاضات وطين وجروف نهريّة خطيرة . وبعد فترة مررنا بصف من اشجار الحور الساطعة .

هنا قلعة « نو » .

لما غادرنا قلعة « نو » أبلغنا أننا سوف نصادف علي بعد مائة ميل من المكان فيضاً نأيسد علينا الطريق . وفي طريقنا إلى النهر مررنا بمجوار فسيح أخضر شاهدنا في وسطه نخيلاً من طراز نخيلات آسيا الوسطى ، وحول الخيم قطعانا من الغنم والبقر ترعى العشب الأخضر . وبعد أن جاوزنا الوادي وجدنا أنفسنا وسط لجة من الطين اضطررنا إلى السير البطيء فترة طويلة إذ لم نستطيع أن نقطع أكثر من ميلين في الساعة . أخيراً اتقلنا من الطريق الموحد إلى منطقة تنتشر فيها التلال . لقد كانت تلال آسيا الوسطى هذه مسكوة بالحضرة تماماً كتلال إيرلنده وفي شهر مايو ١٩٦٠ وهو وقت وجودنا في هذه المنطقة خيل لي أن ما على التلال من عشب يكفي لرعى قطعان الأغنام والماشية في العالم أجمع . بل أن أغنام نيوزيلنده وأبقار الألب السويسرية لو خيرت لفضلت عشب هذه التلال الآسيوية على أي مرعى وأربي ، وهذه التلال الأفغانية والتركمانية لم تكن تمنح الحياة والثناء فقط ، ولكنها كانت على جانب عظيم من البهاء ، فقد كانت تحف بنحضرتها من كلا الجانبين أنواع مختلفة من الزهور البرية المتعددة الألوان .

وعندما اتينا من اجتياز تلك التلال الخضراء الساحرة بدت لنا قمم جبال هندوكوش الشاخخة . وكان أمامنا خائق يجري فيه نهر صغير علمنا أنه أحد نهيرات مورغاب الذي ينبع من غرب هندوكوش ويجري في أراضي أفغانستان ثم ينتهي في الاتحاد السوفيتي حيث يروى واحة مرو ثم يختفي في رمال آسيا الوسطى .

وأخيراً وصلنا وادي نهر مورغاب الذي طالما تأقت نفسي لرؤياه فواجهتنا منطقة خطيرة من الطين اللزج ، وكان علينا أن نتغير طريقنا لولا أن أخذنا حاكم المنطقة الذي حضر لإسعافنا ، وما أن رأنا المحافظ حتى قام بإبلاغ السلطات العليا

بوجودنا ، ويدون أن الطريق كان من الخطر بحيث أثار قلق السلطات الأفغانية على ما يريه .

وعلى الرغم من كل هذه الصعاب فقد كان المرور بهذا الطريق ممكناً . حقيقة أنه بدأ بما ينذر بالشر إذ وجدنا نهر مورغاب يسير في خائق ، وكان جانباه صخوراً وعرة لحافتي بند التركستان وهي سلسلة جبلية تسير موازية لجبل هندوكوش ، ولكن الطريق اتفرج بعد ذلك ، وسرنا على طول النهر في أمان على مسطح صخري . وفي الطريق قابلنا قطعياً من أغنام كرا كول الشهيرة .

وكانت تسير نحونا في صفوف خمسة ما بين أبيض وأسود وأزرق رصاصي . وكان الرعاة يحملون مزماراً من النحاس الأصفر وهم من الباكشيين ، ولكن أصحاب القطيع من الاوزبك وهم العنصر الذي يتكلم التركية من سكان أفغانستان وتركستان . ولما اتقلنا إلى طريق آخر كنا في منطقة الحدود بين أفغانستان والاتحاد السوفيتي .

كنا نود أن نتناول الغذاء في بالامورغاب ، ولكن لا بد لنا من عبور هذا الذي يلج بالدوامات والتيارات الجارفة قبل أن نحقق غرضنا .

تقول الاسطورة أن قورشي الأكبر عندما أراد عبور نهر جنديس قسمه إلى مائة وثمانية نهر صغير ، فهل ياترى قرأ حاكم المنطقة الحالي ما كتبه هيرودوت ، وهو بذلك سوف يعتمد إلى تقسيم نهر مورغاب كي يتيح لنا عبوره ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وإنما الذي حدث هو أننا وجدنا أنفسنا أمام كوبرى فوق النهر اجتزناه بكل سهولة وإذا نحن في مدينة بالامورغاب .

## ٢٥ - دشت ليلي

لما كانت الفيضانات قد قطعت الطريق بين ميمنة وشبرغان فقد اتخذنا طريق دشت ليلي . ولا أدري ان كانت كلمة « دشت » مساوية لكلمة « desert » الانجليزية طبقاً للقواعد التي وضعها علماء اللغات ، أم لا ؟ وعلى كل حال فكلمة دشت بالفارسية معناها صحراء . لذلك اقترنت في ذهني طبيعة هذا الطريق بطريق سوريا وجزيرة العرب وصحراء « راكوزيا » .

تخيلت دشت ليلي صحراء واسعة مغطاة بالحصي والرمال ، ولكن مادامت تضم اسم ليلي فلا بد وأن تكون فاتنة ساحرة إذ هي تذكرني بيلي والمجنون . ترى ماذا تكون دشت ليلي ؟ .

لقد شاهدت في ميمنة الحضرة الماء والحقول والأشجار ، فهل تنتهي هذه كلها هنا بصحراء قاحلة ؟ .

لقد سرنا نحو مدينة دولت آباد ولحسن حظنا وجدنا مدير الأشغال العامة في انتظارنا . إن نهر شيرين تاجو في حالة فيضان كبقية الانهار الاخرى . ولكن مدير الاشغال أعد لنا قنطرة لعبور النهر ، وقامت فرقة من عمال الطرق بشق طريق لنا وسط الارض الطينية التي تغطي جوانب النهر . ولما اتينا من اجتياز هذه المنطقة الكثيرة الوحل وجدنا صفاً طويلاً من التلال المكسوة بالحضرة ، ومن وراء التلال الحضراء كثبان رملية ليس فيها من العشب إلا القليل وأخيراً تخلصنا من هذا الدشت « الصحراء » ووجدنا أنفسنا في ذلك السهل الذي يجري فيه نهر أمور داريا .

هذه الارض التي تتخللها الكثبان الرملية والبراري المقفرة والتي تنتهي عند حوض نهر أمور داريا هي التي يطلق عليها اسم [دشت ليلي] .

ترى هل هذه الصحراء تسحر عابريها كما سحرت ليلي المجنون، وبذلك تستحق اسمها « دشت ليلي » أي صحراء ليلي ؟ .

نعم انها تستحقه وأكثر . فهي صحراء حقيقية بمعنى أنها خالية من الماء باستثناء بعض الصهاريج التي تمتلئ بمياه الأمطار فيستقي منها الرعاة ويسقون قطعانهم من أغنام الكاراكول . أما الجمال التي صادفتنا فكانت تحمل الماء في قرب ضخمة لسقيا الادميين ، كذلك كان الهواء منعشاً نقياً كما هو الحال في هواء الصحراء . حتى كلاب الرعاة كانت جذابة بذيولها المقصوصة الشعر فيما عدا خصلة في طرف الذيل ، ولما سمعت الطيور صوت سياراتنا المزعج هبت مذعورة من أعشاشها . وفيран الصحراء نفسها وقفت على أطرافها الخلفية تنظر إلينا في دهشة وفضول والنسور أخذت تحلق عالياً فوق رؤوسنا . نعم إن دشت ليلي جديرة باسمها .

اليوم فقط رأيت بلخ ورؤيا العين . كان أول ما وقع عليه نظري فيها السور الجنوبي . وبعد ذلك اطلعت على أرجائها الداخلية الفسيحة من برج إيران . ورأيتها للمرة الثالثة من القلعة ، وهذه القلعة مدينة قائمة بذاتها . وإذا نظرت إلى برج إيران من مرتفع على الحافة الجنوبية الغربية للقلعة يخيل إليك أنه بعيد كل البعد عن بقية المدينة .

وأخيراً ألقيت نظرة رابعة على المدينة من برج القلعة ، ومن هنا لا تقتصر الرؤيا على داخل المدينة وأسوارها ولكنها تشمل المنطقة الفسيحة المجاورة لها . ولم يفتني أن ألقى نظرة خامسة على المدينة ، وفي هذه المرة كانت المشاهدة من أحد المعبدتين الزرادشتيين ( معابد النار ) القائمة على المدخل الجنوبي للمدينة .

وعندما غادرنا بلخ إلى مزار شريف ألقيت عليها نظرة أخيرة وأعتقد بعد كل ما شاهدته ان بلخ لم تكن في أعظم اتساع لها بحجم مدينة عصرية مثل شيكاغو أو لوس انجلوس مثلاً .

ومع ذلك فإن رؤية لوس انجلوس أو شيكاغو لا تثيرني كما اثارتنى رؤية بلخ ، تلك المدينة القديمة الحاوية .

لقد حاولت كثيراً أن أتخيل بلخ قبل زيارتي لها ، حاولت ذلك عن طريق الصور الفوتوغرافية كما حاولت أن أكون لها صورة خيالية مما قرأته عن وصفها في المؤلفات المختلفة ، ولكن كل هذه المحاولات لم تكن شيئاً بجانب زيارتي للمدينة في هذه المرة ورؤيتها بنفسى .

دع أولئك الذين يتحدثون عن عظمة شيكاغو من زاويتها ، فما هي

بشيء إذا قيست بلخ في أوج عظمتها واعتقادي أن الأسكندري الذي زار بلخ يوم أن كانت عاصمة لامبراطورية بقطريا الأغريقية لا بد وأنه ذهل بما شاهد من عظمة وبهاء .

كذلك أعتقد أنه لو قام رومانيا بريارة بلخ يوم أن كانت إحدى عواصم امبراطورية كوشان لاتباه نفس الاحساس الذي اتاب الاسكندري من قبله .

وعلي أي حال فأنا شخصياً أخذت بهذه العظمة وهذا الجلال !

إن تلك الأسوار المائلة والأبراج والروابي والاستحكامات ، حتى وهي في فنائها المائل أمامي لتثير في نفسك إحساساً قوياً بما تستطيع الجهود الانسانية تحقيقه من أعمال عظيمة على مر العصور وتوالى القرون .

لقد وصف هيرودوت مصر بأنها هبة النيل ، ويمكننا وصف بلخ بأنها هبة النهر المسمى باسمها . إن تنوءاً من جبال هندوكوش يمتد مسافة طويلة في سهل أمور داريا ، وواجهته الخارجية حائط جيلي جاف قاحل . ولكن بعض المواطن كأن يد ساحر أقوى من النبي موسى ، أو إله أقوى من يوسايدون إله البحر في أساطير الأغريق ، قد شقت الصخر وأخرجت نهراً يجمع مياه مرتفعات هرازة جات المائلة . تستطيع عبور النهر عند مخرجه من الحائق ، ذلك بفضل الكوبرى المقام علي الحائق هناك . وعندما تقف فوق هذا الكوبرى تستطيع أن تقدر حجم الماء المتدفق من الجبل ، وهذه الكميات الضخمة من المياه تنساب إلي السهل الأعظم فتروى إقليماً من أخصب بقاع الأرض ، أنها أرض بكر ، وما أن يصلها الماء حتى تدرك كل أنواع المحاصيل الزراعية والفاكهة . ولقد ظل الانسان طوال ثلاثين قرناً ، بل ربما ضعف ذلك ينتزع أكبر فائدة ممكنة من ماء نهر بلخ ليروى السهل وبهية القوت لنفسه ولحيواته .

فما أن يصل النهر إلي السهل حتى ينقسم إلى ست قنوات كبرى . وهذه القنوات بدورها تنقسم إلى مجارى مائة فرعية . وتتجه المجارى المائية نحو الغرب

مسافة خمسين ميلاً حتى تصل إلى ماوراء أقيجه ، وهكذا ترى أن بلخ وسط واحة من أكبر واحات العالم .

وهي وإن كانت قائمة في وسط السهل المروى إلا أنها أيضاً على مقربة من الحائق الجبلى وبذلك تستطيع التحكم في توزيع المياه عند اتجاهها غرباً .

ليس في استطاعة إنسان أن يقدر عمر مدينة بلخ فالقول بأنها « أم المدائن » تنازعها فيه اليوم مدينة أريحا . وتستند أريحا في قولها بأنها « أم المدائن » بالحفائر والكشوف الأثرية ، ذلك أن مياه الينابيع الواقعة حول أريحا لم تمنع علماء الآثار من التنقيب والوصول إلى الطبقات التي تحت التربة التي تكونت في العصر الحجري الأخير . أما في بلخ فإن وفرة المياه السطحية التي جلبها نهر بلخ جعلت من الصعب النزول بالحفائر إلى ما دون مستوى كوشان ، والمعروف أن حكم أباطرة كوشان في بلخ لا يمتد إلى أكثر من القرن الأول الميلادي وقد يمكن العثور على قطعة من الفخار فتحدد مرحلة كاملة من مراحل المدينة ولكن الأسوار المبنية من الطين ، حتى ولو كانت على ضخامة هائلة كأسوار بلخ ، لا تستطيع كشف أسرار التاريخ لعلماء الآثار .

إن العمائر المبنية من اللبن المجفف في الشمس لا تستطيع تحديد الزمن . فشلا في مدينة بلخ إذا أُلقيت نظرة من برج القلعة على المناطق المجاورة شاهدت « رباطا » أي حصنا على شكل مربع على كل ركن من أركانه الأربعة برج مستدير ، وهذه الأربطة كانت في عهد الأمير عبد الرحمن ، أي في أواخر القرن الثامن عشر . وإذا ما قورن عمر الرباط بعمر مدينة بلخ ظهر بجانبها حديث العهد ومع ذلك فأسوار بلخ ورباط الأمير مبنية من نفس المادة وهي اللبن المجفف . واعتقادي أن الأركيولوجين سوف يقضون ألف سنة أخرى قبل أن يكشفوا السر حول عمر مدينة بلخ وقد تأكد لي ذلك عند عودتنا من بلخ إلى مزار شريف فقد مررنا بحصن مهجور من تلك الحصون المربعة ، وفي وسط هذا الحصن الحرب تبين لنا بأن الدور الحربية

قد هجرها أهلها في نفس الوقت الذي حل فيه الدمار بمدينة بلخ نفسها . ولما تحرينا صحة الأمر تبين لنا ان هذا الحصن حديث العهد إذ أنه بنى خصيصاً للأمير عبد الرحمن خان في صباه عندما كان يمارس التدريبات العسكرية استعداداً للمستقبل الذي ينتظره .

والنتيجة التي نستخلصها من ذلك كله أن الطين الذي كان مادة البناء في واحة بلخ جعل كل مبانيتها الأثرية كأنها أقيمت في عصر واحد .

وإذن فكل ما نستطيع أن نعرفه عن تاريخ مدينة بلخ باستثناء تلك الآثار الضخمة التي تمثل في أسوارها المقامة من الطين ، هو أنها ظلت واحدة من أكبر مدن العالم لفترة لا تقل عن أربعة آلاف سنة منذ ظهرت الحضارة الإنسانية على وجه الأرض . ولم تعد عليها يد الدهر وينطوى ذكرها إلا منذ سبعمائة وخمسين عاماً فقط .

ذلك أنه في تلك الحقبة من الزمن توالى عليها ثلاث نكبات كبرى من أعداء حملوا إليها ألواناً مختلفة من الهلاك والتدمير . النكبة الأولى جاء بها المغول تحت قيادة زعيمهم جنكيز خان ، والثانية من الترك تحت قيادة تيمورلنك وأخيراً جاء الفتح العربي في عهد الخليفة علي ، ويبدو أن أشد الضربات هي التي تلقتها بلخ علي أيدي الخليفة علي ، ذلك أن الفاتحين الآخرين استطاعوا أن يحطوا وسائل الرى التي أنشأتها بلخ طوال عهدها بالحضارة ، كما أنهم جعلوا المدينة حاماً من الدم بذيبح أكبر عدد من أبنائها . ولكن أهل بلخ كانوا يستطيعون النهوض بعد كل كارثة من هذه الكوارث فيصلحون قنواتهم ويسدون الثغرات التي خلفها الغزاة في أسوار المدينة ويعيدون الحياة فيها إلى بعض ما كانت عليه من قبل . ولم يخطر ببال أحد أن الواحة التي يرويها نهر بلخ سوف يكون لها عاصمة أخرى غير مدينة بلخ . أما الضربة القاضية على مدينة بلخ فهي تلك التي وجهها إليها الخليفة علي . ففي القرن الخامس عشر الميلادى ، بينما كان خلفاء تيمورلنك يحكموا على المنطقة تم اكتشاف قبر الخليفة الرابع علي في بقعة تبعد قليلاً عن مخرج نهر بلخ من الجبل ، وقد عرف المكان منذ ذلك الوقت باسم مزار شريف . وقد اقيم حول ضريح هذا

البطل الاسلامي مسجد نخم ومن حول المسجد مدينة كاملة . أما المسجد فهو الذي اشتهر باسم المسجد الأزرق وأما المدينة فهي مدينة مزار القائمة حاليا ، ولما لم يكن في الواحة متسع لمدينين كبيرتين فقد تضاءلت بلخ كلما ازدادت مدينة مزار همرا ، وفي النهاية ازدهرت الثانية وأقمرت الأولى . وهذا يذكرنا بنفس ما حدث من قبل في بابل بين مدنها الثلاث : سيلوفيا وكتسيفون وبغداد .

ولما اغتصبت مدينة مزار الناشئة مكانة بلخ ، تلك المكانة التي طالما كانت حكرا لها على عمر العصور ، فقد أصبح الحليف الطبيعي لمدينة بلخ مدينة النجف [ مركز الشيعة ] في العراق وهي التي تنازع مدينة مزار شرف في ضم قبر الامام علي .

ولما كانت الكوفة التي قتل فيها علي ابن أبي طالب بعد مرمى حجر من النجف . بدعوى أن النجف تضم قبر علي أشد إقناعا من دعوى مزار البعيدة جدا عن الكوفة وملايين من الشيعة يتمنون أن يدفنوا في النجف باعتبارها الارض الطاهرة لاعتقادهم في صحة وجود قبر علي بهذه المدينة .

ولكن وجود ضريح علي في مزار هو خير ما يرد به المسلمون السنيون على الشيعة في أنهم فازوا بوجود ضريح الخليفة الرابع لديهم ، ذلك أن الشيعة يحاولون دائما إثبات أن عليا شهيد اختص به الشيعة وحدهم دون غيرهم من المسلمين . ولكن السنين باكتشافهم لقبر علي في مزار شريف وبناء المسجد الأزرق حوله ، أثبتوا أنهم لا يخلون ولاء وحبا املى عن هؤلاء الشيعة المتعصين له .

وفي وسط هذا الشد والجذب بين الشيعة والسنية على ملكية قبر بطل من أبطال الاسلام ، ظهرت اتجاهات وسياسات دينية متعارضة كانت بمدينة بلخ ضحية لها . ولقد كان هذا ايضا نفس المصير الذي لقيته مدينة نيسابور ، فان الذي اخرج اهلها منها وتركها قاطع صفتها لم يكن جنكيز خان وإنما هو

الامام « عليّ الرضا » ذلك أن وجود قبر هذا الامام قرب نيسابور جعل الأهالي يهجرون مدينتهم ويلوذون بجواره تماما مثل ما هجر أهالي بلخ مدينتهم ولاذوا بجوار خريخ الخليفة علي .

ان هذه السنوات السبعائة والخمسون من التدهور والاضمحلال لتعتبر في عمر بلخ التاريخي المديد فترة طارئة . ذلك أن الحياة وقد دبت اليوم في عروقها وتجاوبت أصداء هذا الانتعاش بين أسوارها الطينية الضخمة ، وليس من المتوقع في المستقبل القريب أن تستعيد بلخ مكانتها التاريخية القديمة التي اغتصبتها منها مدينة مزار شريف ، ولكن بلخ تستفيد اليوم فائدة كبرى من النهضة الاقتصادية التي شملت الواحة كلها ، وهذه النهضة ليست إلا جانباً من النهضة الاقتصادية الشاملة التي عمت أرجاء أفغانستان .

ولقد ظل نهر بلخ في عهود الخير والشر يستمد مياهه من مرتفعات هزار جات فيحمل الخير والنماء إلى السهل ، ولن يقف شريان الحياة في مدينة بلخ التاريخية طالما جرى النهر حاملاً إيمها ، ومن يدري فقد تنتعش آمال بلخ وتنهض من كبوتها مرة أخرى .

ان الحيوية الشاملة التي شاهدنا آثارها في كل بقعة من بقاع الواحة الكبرى ظهرت لنا واضحة جلية يوم أن سافرنا من شبرغان إلى مزار عن طريق أقبجه . فقد تصادف أن كانت رحلتنا يوم الإثنين وهو يوم السوق في كل من مدينتي شبرغان وأقبجه ..

فما أن غادرنا شبرغان حتى قابلتنا جماعة كبيرة من الفرسان متجهة غرباً إلى سوق البلدة . ولقد شاهدنا على جانبي الطريق حقولا خضراء يانعة ولكننا لم نستطع معرفة الوسيلة التي تم بها نقل المياه إلى هذه الحقول من نهر شبرغان الصغير . كذلك لم نستطع تحديد خط تقسيم المياه بين نهر بلخ ونهر شبرغان .

وإذا كنا قد عجزنا عن معرفة خط تقسيم المياه الجغرافي فقد استطعنا معرفة خط التقسيم البشري .

ذلك أن هؤلاء الفرسان قد اتجهوا وجهة أخرى وبدلاً من أن يتجهوا إلى  
شیرغان ، تخدمهم قد اتجهوا نحو أقبحه . وكان من حسن حظنا أننا نسير في نفس  
اتجاههم . وقد لاحظنا أنه كلما تقدم الراكب ازداد عدد الفرسان إلى درجة لم  
أعدها منذ طفولتي .

تبين أن هؤلاء الفرسان من الأوزبك في طريقهم إلى السوق لبيع شاة  
أولشراء صفيحة من الكيوسين .

ولكنهم جميعاً كانوا في ركبتهم هذا تلوح عليهم مخايل الدظمة وتحيط برأس  
كل منهم هالة من الاعتداد بالنفس وكأنهم نسوا ما هم فيه من عيش وضيع وتخلوا  
أنهم في موطنهم الأول مع آبائهم وأجدادهم من فرسان آسيا الوسطى الذين  
اكتسحوا العالم المتمدين في بضعة قرون .

## ٢٧ - مشاهدة نهر أمور داريا :

منذ طفولتي وأنا أحلم بأن أوفق يوماً لمشاهدة نهر أمور داريا ، ذلك النهر الأسطوري الذي يقيم حداً فاصلاً بين إيران وطوران ويكون حالياً حداً فاصلاً بين أفغانستان والاتحاد السوفيتي. كان هذا مجرد حلم ولم أتخيل أنه سوف يتحقق يوماً ما . ولكن الحلم أصبح حقيقة وها أنذا أقف أمام أمور داريا وأسير على شاطئه كما أشاء . وأنتقل إليه من أي جهة أردت ، سواء من ناحية مزار شريف أو من ناحية « قندز » وقد أشار علي البعض أن اختار الوصول إلى النهر من ناحية قندز نظراً للأمطار الغزيرة التي هطلت على غير عادة في هذا العام .

لقد وقفت فوق أعلى أكمة في بلخ وألقيت ببصري في اتجاه الشمال فوجدت أمامي حقولاً واسعة ممتدة امتداداً لا نهاية له . وأدركت أنه في المكان الذي تفرغ فيه قنوات الري آخر نقطة من مائها ينتهي الزرع وتبدأ الصحراء المجردة بين راحة بلخ وبين شاطئ أمور داريا من ناحية أفغانستان .

قبل لي أن علي « أن أعبر صحراوين : إحداهما بين مزارونهر قندز والثانية بين مدينة قندز وأول نقطة التي بهامع نهر أمور داريا فتخيلت أن هذه الصحراوات ليست إلا امتداداً للسهل باستثناء المساء الذي تخلو منه طبعاً بانتهاء قنوات الري ، ورضيت بنصبي من القيام برحلة كثيفة فوق الرمال .

وعندما غادرت مزار وما يحيط بالانتقال من سفر شاق — أدركت أن اختيار هذا المكان ليكون ضريحاً للأمام على لم يكن مجرد صدفة أو لأن المكان يبعث على الراحة والدعة أو أنه سهل الاتصال بالأراضي الزراعية . فالواقع أن مزار تقوم على الطرف الشرقي الأقصى لراحة بلخ وخصوبة الأرض لا تراقبك في هذا الطريق إلا لمسافة قصيرة لا تتجاوز المليون وبعد ذلك تبدأ الصحرا برمالها

وحصاها . وبعد أن تقدمنا قليلا واجهنا بناءً مستطيلاً غاية في الضخامة علي منحدر جبلي فيما وراء مدينة طاشقورجان التي كنا في طريقنا إليها .

ليس من المعقول أن يكون هذا البناء الضخم أحد الربط التي أقامها الأمير عبد الرحمن خان . إذن ماهو ياترى ؟ هل هو آخر مدينة قديمة مهجورة ، أم أن تلك القبة التي تعلو أسواره الضخمة ضريح أحد أئمة أهل السنة من المسلمين ولعله الخليفة عمر ؟ . لقد كنت أتحرق فضولاً منى لرؤية ما بداخل هذا المبنى . ولكن أسعفتني أحد رجال الشرطة إذ قادني إلى طريق جانبي يؤدي إلى مكان منخفض من تلك الأسوار العالية فأمكننا اقتحام الأسوار .

وقد تبين لنا أن ما بداخل الأسوار لم يكن خرائب مدينة قديمة وإنما هو بستان جميل وأن القبة ليست إلا زخرفة أقامها صاحب البستان . لأنها من مخلفات الأمير عبد الرحمن ولم يكن القصد منها — إقامة تحصينات ووسائل دفاعية ولكن للبهجة والسرور .

وقد علمنا من حاكم المنطقة أن هذا البستان قد أطلق عليه اسم « جاها نيا » أي « منظر العالم » ، فإذا صعدت إلى الشرفة العليا المقامة حول القبة تكشفت أمامك كل المنطقة المحيطة بك ، فهناك شريط من الحضرة ينتهي عند سفح الجبل وهو دليل علي وجود مجرى ماء يسيل من الجبل فيبعث الحياة في الأرض القفر ، وعلى جانب النهر تشاهد خرائب قلعة قديمة . وفي أسفل البستان تقع المدينة الحالية وهي مدينة طاشقورجان وسط واحة خضراء ، وهي لا تمتد حتى الأفق كما هو الحال في واحة بلخ . ويمكنك بنظرة واحدة من أعلى الشرفة أن تحيط بكل ما في طاشقورجان من زرع وشجر . ولكن إذا هبطت إلى المدينة ومررت بأسواقها الكبيرة الواسعة أدهشك أن يستطيع الإنسان بمثل ذلك المقدار القليل من الماء الذي يجلبه الجدول الصغير إنشاء مجتمع كبير كهذا لأنه مليء بالخيرات من محاصيل زراعية وفاكهة . وما أن يمتد طرفك إلى ما بعد الراحة حتى ترى « الدشت » في الصحراء وقد أحاطت بها من كل جانب . ولولا ما كان يغشي الجو من ضباب رقيق لرأينا صفاً طويلاً من الأشجار يمتد على طول مجرى نهر آمور داريا .

وعلى بعد من مكاتنا هذا يوجد ممر شياغلوكوتل الذى يؤدى إلى سهل  
فسيح ثم منطقة من التلال المكسوة بالحضرة والزهور، تذكرنا بتلال قلعة [نو]  
وبظهور التلال الخضراء ظهرت الخيام وقطعان الغنم والجمال .

تقدمنا فى السير حتى بلغنا واديا مكسوا بالحضرة يرويه نهر قندز ومن  
هناك استطعنا أن نستمتع بمنظر الشمس وقت الغروب وقد انحدرت إلى ما وراء  
نهر آمورداريا حيث حيال جمهورية تاجيكستان السوفيتية .

وتقع مدينة قندز على هضبة مثلثة الشكل مكسوة بالحضرة بين نهري  
يچنيمان عند رأس المثلث وهما نهر آقندز وخان آباد . والغريب أن المياه التى  
يحملها نهر قندز من الثلوج الذائبة فى المناطق الجبلية أكثر من مياه الأنهار  
الحمسة التى شاهدناها فى قندهار .

اتجهنا إلى قزل قلعة وهى الميناء النهري الجديد الذى أنشئ على الشاطئ  
الأفغانى لنهر آمورداريا . ولما صعدنا إلى مرتفع تكشف لنا مخيم هائل لم نشهد  
مثله من قبل . وقد أحاطت بالخيام قطعان لا عدد لها من الغنم والبقر . كأن  
الآدميون وقطعانهم يستمتعون بالحضرة إلى أقصى حد . وهذه البقعة اسمها تحت  
زال ، وما كان لهم أن يخشوا قدوم الصيف الحار الجاف ، لأنهم إذا اقترب  
الصيف ساروا بقطعانهم وخيامهم إلى المراعى الصيفية فى باداخشان : وما كانت  
قطعان الغنم والماعز والبقر المنتشرة فوق الهضبة الخضراء تثير انتباهنا بقدر  
ما أثاره منظر الخيل المنطلقة فى حرية كاملة ترعى الكلاً . وقد ذكرتى هذه  
الخيول بمنظر خيول التتار التى نراها فى الواحات الصيفية .

وقد امتدت الهضبة الخضراء عشرات الأميال فى اتجاه آمورداريا وأخيراً  
الفينا أنفسنا وقد عدنا إلى التلال الرملية مرة أخرى .

وهنا اختفت الخيمة الباختونية وظهرت فى مكانها خيمة تركمانية ولاحظت لنا  
أعمدة طويلة فى الجانب السوفيتى خيل إلى أنها أعمدة لاسلكى . أخيراً تأكدت  
أنها جزء من معدات أحد أبراج المراقبة التى أقامها السوفيت على طول خط

الأسلاك الشائكة الذي يقف حاجزاً بين أفغانستان « والستار الحديدي » .  
وأخيراً وقفنا على شاطئ «أمورداريا» .

كم يبلغ عرض النهر هنا عند قزل قلعة ؟ يخيل لي أنه يبلغ مائتي ياردة ،  
ويمكنني القول أنه في هذا المكان أكبر من نهر السند عند مدينة أتوك ، أو هو  
مساو لنهر الألب في المنطقة الواقعة بين مدينتي كولونيا وبرلين . وإذا كان  
أمورداريا هنا بهذه السعة فلا بد وأن يكون أكبر من الراين عند ملتقاه مع آخر  
نهراته ، ومنها قندز وخان آباد اللذان سبق ذكرهما .

فهذان النهران يشقان طريقهما وسط رمال الصحراء حتى يبلغا أمورداريا  
وهذا بخلاف ما عليه أنهار بلخ ومورغارب وهاري رود التي تختفي نهائياً في رمال  
الصحراء . وكما أن أمورداريا يغذيه من الجانب الأفغاني نهر قندز وخان آباد  
فكذلك يغذيه من الجانب السوفيتي في تاجيكستان نهر هام آخر هو نهر وكش .

ويبدو أن الجغرافيين الأغريق أخذوا اسم أمورداريا وهو عندهم (أوكساس)  
من اسم نهر وكش ، ظناً منهم أن وكش هو للنهر الأصلي وأن أمورداريا فرعه .

إن إنشاء أفغانستان لهذا الميناء النهرى على نهر أمورداريا وهو ميناء قزل قلعة  
قد يحدث انقلاباً كبيراً في نظام المواصلات بهذه البلاد . فقد جرت العادة أن  
تستورد أفغانستان كل ما تحتاجه من الخارج من سلع عن طريق ميناء كراتشي  
في باكستان . ثم تنقل البضائع بالسكك الحديدية من كراتشي إلى بشار و من هناك  
تنقل باللوريات من بشار إلى كابل وبقية المدن الأفغانية . أما الآن فقد استخدم  
طريق نهر امورداريا الجديد . وعن هذا الطريق تنقل البضائع بالسكك الحديدية  
من تشكوسلوفاكيا مثلاً حتى تصل إلى ميناء ترمز السوفيتي على نهر أمورداريا  
ومن ترمز تنقل في النهر حتى ميناء قزل قلعة الأفغاني وهو واقع على نهر أمورداريا  
أيضاً كما سبق أن ذكرنا .

ويقوم المهندسون السوفييت في الوقت الحاضر بشق نفق في جبال هندوكوش  
لحساب حكومة أفغانستان . ويجرى شق هذا النفق تحت عمر سالانج الجبلي ،

وعندما ينتهى شق النفق فإن الطريق بين (قزل قلعة وكابل) سيصبح سهلاً لمرور السيارات من الطريق الحالي بين بشاوړ وكابل ، وبذلك تنتقل حركة النقل البرى إلى أفغانستان من طريقها الحالي عبر باكستان إلى طريق جديد عبر بلاد الاتحاد السوفيتى .

ولن تكون هذه أول مرة تصبح فيها الملاحة النهرية فى أمورداريا عاملاً حاسماً فى تاريخ العالم ، ففي القرن الثانى قبل الميلاد استخدم الإيرانيون ما تعلموه من فن الملاحة على نهر أمورداريا فى تسيير السفن محملة بالبضائع فى مجارى نهري (هلموند والسند) .

وهؤلاء الإيرانيون الذين يطلق عليهم اسم « الساكّا » كانوا يقومون بغزواتهم وفتوحاتهم عن طريق النهر ، كما يقومون بها على ظهور الجياد ، وقد تبهم فى ذلك القوزاق فى عصر متأخر .

وليس من المحتمل ان يقوم اليوم ملاحو نهر أمورداريا السوفيتى بغارات نهرية على بلاد أفغانستان كما فعل أجدادهم من قبل ، إذ من المستبعد أيضاً ان يفكروا فى السيطرة عليها بقوة السلاح ، ولكنهم سوف يحاولون اجتذابها كما تجذب الشمس زهرة عباد الشمس .

ومن حق السوفيت ان يفعلوا ذلك إن استطاعوا ، فلكل إنسان الحق فى جلب المنفعة لنفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

كذلك من حق باكستان والعالم الغربى ان يتسابقوا مع السوفيت فى اجتذاب أفغانستان بأن يجعلوا طريق (كراتشى - بشاوړ) أكثر جاذبية من طريق ترمز قزل قلعة النهري بين الاتحاد السوفيتى وأفغانستان .

عندما وقفت على رصيف ميناء قزل قلعة وألقيت نظرة على السفن السوفيتية وهى تقابل اللوريات الأفغانية ، تمنيت مخلصاً ان يوفق الأفغان والسوفيت فى هذا المشروع الاقتصادى الجليل وإذا عن لغربى ان يضمّر للطرفين العداوة

بسبب توفيقهما إلى هذا المشروع ، فهو في ذلك قصير النظر ، بل قل أنه حقود حسود .

نحن نعيش في عصر أصبحت فيه مصالح العالم متشابكة وأصبحت حياة كل شعب متوقفة على مدى تعاونه مع الشعوب الأخرى ورخاء بلد من البلاد في الوقت الحاضر متوقف على رخاء غيره من البلاد .

وأفغانستان في هذا ليست شاذة عن القاعدة ، فلا بد لها من خطوط مواصلات كافية لتجاريتها الخارجية .

ومن هنا لا يسعني إلا أن أهتم عالياً : آمنى لقزل قلعة كل رفعة وهناء !! .

## ٢٨ - سرخ کوتل (اتل الصخر)

ان غالبية اليابسة التي على سطح هذا الكوكب وجانبها كبيرا من بحاره يجذب إليها المؤرخ انجذاب المفتون . إن الانسان أو الطبيعة أوهما معا يعينان بهذا الأمر .

ولكن رحلة واحدة ، حتى لو ثمات هذه الرحلة العالم بأسره ، بل حتى لو ظل الانسان طول حياته متفلا رحالة بين البلاد فإنه لن يستطيع أن يعلم من سطح هذا الكوكب إلا بالنسر اليسر . ففي كل خطوة منظر جديد وأفق جديد ، وكلما أوغل الإنسان في الرحيل كلما أدرك أنه لم يكتشف من العالم إلا القليل ومن هنا تبدأ متاعبه التي لو اكتفى بالقبوع في عقر داره لما تجشمتها .

كانت خطتنا أن نقوم برحلة دائرية حول أفغانستان . ولكن ما أن بدأنا من كابل وسرنا في اتجاه شمالي غربي صوب هيرات حتى تبدى لي لو استطعت أن أولى وجهي شطر الجنوب لرؤية سبستان حيث تتفرع دلتا نهر هلموند قبل أن يفرع مائه .

تذكرت صورة طبت في ذهني منذ أيام طفولتي لرحلة ماركو بولو إلى الصين . ومنذ أن غادرت شبرغان في رحاتي هذه إلى أن وصلت قندز ، كنت أسير في اعقاب ماركو بولو . ولكن عند قندز غير بولو اتجاهه فقد اتجه إلى الشرق عبر سهل خان آباد ومر بطاليقان ثم صعد في مرتفعات باداخشان حيث وصل إلى باداخشان وهو في حالة مرضية . ومكث بضعة أشهر في باداخشان حتى شفي من مرضه . ومنذ شفائه ظل يواصل رحلته شرقا حتى بلغ الصين عبر هضبة البامير .

لقد تصادف ان نمنى إلى ان العالم الياباني البروفسور ايوامورا كان هو الآخر فى طريقه إلى باداخشان لدراسة حياة القبائل الرحل فى نجوعهم . الصيفية حول بحيرة خيوا . وهنا ساءت نفسي ، ولم لأزور باداخشان بعد زيارتي إلى سرخ كوتل وباميان ؟ ولما لم يكن من المستطاع تغيير خط سيرى والاتجاه إلى باداخشان ، فقد اكتفيت فى هذه المرة بتقصير رحلتى على سرخ كوتل .

غادرنا قندز وسرنا على طول مجرى نهر قندز وما ان وصلنا على آباد حتى وجدنا خانقا يمرض سيلنا . وهنا لم يكن فى وسعنى إلا ان استسلم للخطر وانتقل فى هذا الخانق حتى اصل إلى أحد الممرات فى جبال هندوكوش .

ولكن هضبة إيران مليئة بالمفاجآت التى تثير عجب السائح الغربى ، لأننا ما سرنا قليلا فى هذا الخانق حتى وجدنا انفسنا فجأة وسط سهل عريض هو سهل بغلان ، ولم تتقدم قليلا فى السهل حتى وجدنا سلاسل جبلية مرتفعة تحيط بنا من كل جانب فمن يميننا جبال وعن يسارنا جبال وفى مواجهتنا جبال ، وكأن هذه الجبال تتساءل : ألم تتوقعوا رؤيتنا ؟

وها خلتنى ارد على الجبال قائلا : لقد قابلتنا جبال اشد منك عشوا فيما بين هيرات وميمنة ، لقد عجزت عن إيقاف قورش والاسكندر وكانيشكا وجنكيز خان وبار . بل لقد عجزت عن إيقاف ملك الافغان عند اقتحامه لك فى رحلته الأخيرة ، فهل تظنين انك مستطبعة إيقافنا اليوم ؟ . ولما تقدمنا فى سيرنا وصلنا سهلا آخر ومن هناك نظرنا نحو طرفه الغربى وإذا بنا نلمح درجات سرخ كوتل .

مما يشير الشاعر ان تشاهد عيانا ماسبق لك ان رأيته فى صور فوتوغرافية او خريطة . انى الآن وانا اكتب هذه السطور ارفع عيني عن الورق لأشاهد الأطراف العليا لصف من اشجار الحور المؤدية إلى صخرة وعرة وقد حفر فيها

تمثالان هائلان ، كما ارى بهذه الصخرة عدة كهوف سوداء مظلمة ، وقد فغرت افواهها وكأنها وحوش اسطورية تلتهم ما يصادفها من انسان او حيوان . إن امامي الآن سرخ كوتل .

لقد قضينا بعد ظهر اليوم في زيارة هذه البقعة الأثرية الشهيرة ، وكان يرافقنا في هذه الزيارة البروفسور دانييل سلومبرجر رئيس البعثة الأثرية الفرنسية في أفغانستان ومعه بعض زملائه من أعضاء البعثة ، إنه لحظ سعيد ذلك الذي وفقني لرؤية هذا المزار الأثري الشهير وأنا في صحبة العلماء الذين اكتشفوه وأزاحوا عنه أكوام التراب .

إذا نظرت إلى سرخ كوتل من قمة الجبل لوجدت أن معبد النار هذا يقوم على رأس أكمة مرتفعة تقطعها وحدة عن الأكمة التالية . وهي في ذلك تذكرك بموقع مدينة برسيبوليس ( اصطخر ) على أكتافها العالية وعزلتها عما جاورها .

وفي اليوم التالي صعدت إلى قمة الأكمة الثانية التي يقوم عليها حضر من العهد الاسلامي .

إن سرخ كوتل ذات موقع ممتاز فهي ملتقى عدة طرق هامة ينحدر أحدها من جبال هندوكوش ، بينما يتجه الآخر نحو واحة طاشقورجان . ولقد كان هذا أحد الطرق الرئيسية بين الهند وبلخ منذ فجر التاريخ ولا يزال كذلك حتى اليوم .

ولقد اختار موقع سرخ كوتل أحد الأباطرة الذين حكموا ما بين نهري امورداريا وجنا . ويغلب الظن ان هذا هو الامبراطور كانيشكا . الذي كان زعيماً لإحدى القبائل الرحل ثم بنى امبراطورية في القرن الأول أو الثاني المسيحي ، واشتهر بأنه نصير البوذية وراعيا ، وبفضله استطاعت الديانة البوذية أن تعبر جبال هندوكوش إلى شرق آسيا بالتفائها حول الطرفين الغربي والشمالي لمضبة التبت ، ولكن الديانة التي من أجلها أقام كانيشكا سرخ كوتل ، لم تكن البوذية ، ولكنها كانت نوعاً من عبادة النار ، قد تكون الزراردشتية أو شيئاً قريباً منها . وقد تكون لعبود احتفظ بالنار حية على الهيكل تكريماً له .

وان هيكل النار يقوم في وسط معبد مربع الشكل حوله طرقة لغير الكهنة من الطائفتين المتعبدتين . وهذا الطراز من المعابد يخالف تمام المخالفة للمعابد الأغريقية ، ففي المعابد الأغريقية لا تتركز العبادة حول هيكل النار وسط المعبد ، ولكنها تقوم أمام صورة مجسدة للعبود مستترة مقدسة ، في أقصى مكان من المعبد المستطيل ، والفارق بين الطراز من المعابد وبين الفكرة التي يملكها كل منهما ، يبدو واضحاً جلياً في سرخ كوتل لأن فن العمارة الأغريقية استخدم هنا لزخرفة معبد غير أفريقي . ويتمثل هذا الفن الأغريقي في القواعد الحجرية للأعمدة وفي وسط الأعمدة الأربعة القائمة في المعبد نفسه وفي صف طويل من الأعمدة يحمل سقف البهو المحيط بالمربع الذي يقوم وسطه الهيكل .

لقد أطلق اسم سرخ كوتل على هذا المعبد مكتشفوه الأثريون الفرنسيون ذلك أنهم قبل أن يزيلوا عنه التراب ، كانت الأكمة التي وجد بها تسمى سرخ كوتل ومعناها « التل الأحمر » لأن التربة ضاربة إلى الحمرة ، والأكمة تشرف على الطريق . ولقد كان هذا المعبد محصناً ، فهناك صف من التحصينات يحيط به وصف آخر من التحصينات أيضاً يقوم حول الأكمة كلها بما في ذلك المساكن الموجودة بها . والمساكن متواضعة ، ومن هذا نستنتج أن سرخ كوتل وإن كان معبدًا وحصناً لم يكن قفراً .

وأهم اكتشاف عثر عليه الأثريون الفرنسيون في هذا المكان نقوش وكتابة أثرية بالأمجدية الأغريقية ، ولكن بلغة غير الأغريقية . ويظهر بين هذه النقوش اسم الإمبراطور كانيشكا عدة مرات . ولا ندري إن كانت هذه الكتابة الأثرية من عهد كانيشكا نفسه أو أنها من مخلقات قوم جاءوا بعده وأرادوا إعادة تجديد ذلك المعبد الذي أنشأه كانيشكا واللغة التي كتبت بها هذه الرموز الأثرية لغة إيرانية مندثرة . ويبدو أنها لغة أهل بقطريا وليست لغة حكامها الكوشانيين . وإذا درسنا النقود الأثرية الباقية من عهد كانيشكا حسب ترتيبها الزمني يبدو لنا أن كانيشكا هو الذي أبطل استعمال اللغة الأغريقية كلغة رسمية لامبراطورية كوشان ، كذلك تدلنا تلك الكتابة الأثرية على جدران سرخ كوتل أن

كانيشكا احتفظ بالأبجدية الأغريقية كوسيلة يستطيع بها تدوين اللغة الإيرانية . ومن ناحية أخرى نجد البارثيين ( فيما يسمى الآن فارس ) والصفديين ( فيما هو الآن وادي نهر زراف شان وشمال غرب امورداريا في إقليمى بخارى وممرقند ) لم يكتبوا لغاتهم الإيرانية بالأبجدية الأغريقية بعد ان انحلت الامبراطورية الإيرانية القديمة ، وقامت مكانها حكومات اغريقية . بل ان هذه المناطق استخدمت الابجدية الآرامية التي كانت شائعة في الامبراطورية الإيرانية قبل ان يغزوها الاسكندر . وكانت اللغة الآرامية وأبجديتها أكثر اللغات الرسمية استعمالاً في الامبراطورية الإيرانية القديمة .

وهذه ليست إلا فتات مائدة هوميروس التقطتها أثناء زيارتي لسرخ كوتل ، أما هوميروس هنا فهو البروفسور شلومبرجر رئيس البعثة الأثرية الفرنسية .

ولا يفوتني هنا ان أسجل حادثان لا يزال أثرهما قويا في نفسى . أولهما انى كنت جالسا ذات يوم مع البرفسور شلومبرجر تحت شجرة مشرفة على ينبوع فى السهل على قرب من مفترق الطريقين الرئيسيين الذين يؤدى أحدهما إلى بلخ والآخر إلى قندز وباداخشان . وكان تحت شجرة مجاورة طفل ينظر إلينا ويتسم . وألقيت نظرة على الماء فرأيت سرباً من الاصماك تحت سطحه ، وجأة عادت بي الذكرى قروناً طويلة حيث تخيلت كسرى ابرويز الساساني امبراطور فارس يقوم برحلة صيد فى غيضة . ان نبات الغاب الذى رأيته فى الغدير هو الذى ذكرني بكسرى ابرويز ، ذلك ان النبات الذى أمامى هو نفس نبات الغاب الذى شاهدته فى كرمانشاه .

الحادث الثانى وقع لى فى معبد النار بينما كنا نتناول الشاي انا واعضاء البعثة الأثرية الفرنسية . ففى أثناء تناول الشاي نظرت إلى صورة كسرى وهو يتسم وينظر إلى الجبل . ترى ، لمن يتسم جلالته ؟ نظرت الى الناحية الاخرى فوجدت فأراً من فيران الجبل قد وقف على خلفيته وأخذ يحدق فى صورة الملك . لقد أثار عجبى منظر الملك بين فيران الجبل ! .

## ٢٩ - باميان :

عند بدأت رحلتنا إلى باميان في صباح اليوم التالي كان نهر قندز قد ضاعف سرعة تياره فدخلنا بعض الخوف من اضطراب الجو وفي أثناء المسير ضاق الطريق وأدركنا أننا نمر في خائق جبلي ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا أمام سفوح هندوكوش في أسفل الطريق الشمالي لمر سالانج الذي يرتفع عن سطح البحر اثنا عشر ألف قدم . أما النهر الذي عبرناه فلم يكن نهر قندز ولكنه نهر « انداراب » والنهران يلتقيان بعد أن يكون انداراب قد هبط من ممر خاواك في حين أن قندز قد هبط من ناحية ممر شيبار وعندما عبرنا الكوبري الذي فوق النهر سرحت ببصري إلى أعلى فشاهدت كوبريا آخر فوق نهر انداراب . وعلمت أن هذا هو الكوبري الذي يسير فوقه الطريق من قندز ثم يتجه جنوباً نحو النفق الذي يقوم المهندسون الروس بشقّه في جبال هندوكوش تحت ممر سالانج . وعندما يتم إنشاء هذا النفق سوف يكون هناك طريق مرصوف بين قزل قلعه على نهر أمور داريا وكابل عاصمة أفغانستان .

ولقد مررنا في طريقنا بنهر سور خاب وبعد أن جاوزناه متجهين نحو نهر باميان ، وجدنا أنفسنا في خائق جبلي مرتفع الجوانب إلى حد مخيف .

وهناك كانت مياه النهر تتلاطم وترتطم بالصخر بشكل مزعج . وبينما نحن نسير صاعدين في الجبل ، إذا بالصخر ينفرج عن أرض مسطحة مغطاة بالحقول الخضراء ومازلنا نسير بين حقول وزرع وخصرة حتى وصلنا نهر باميان . وفي هذه المنطقة يلتقي نهر باميان بفرعه كالمو فيتوفر الماء ويجرد الزرع وفي أعلى هذا المكان يمتد طريق إلى كابل ولكنه لا يسمح للسيارات بالمرور لضيقه وكثرة تعرجه وعدم استوائه .

وعند ملتقى باميان بفرعه كالمو أيضاً يرتفع جبل أرجواني اللون وعلى قمته

حصن بنفس لون الجبل . وإذا نظرت في اتجاه الحصن وقع بصرك على أسوار تلو أسوار بهذا اللون الأرجواني وفي أعلاها برج بنفس اللون أيضاً .

هذا هو حصن شهر زوهاك . ويعتقد الآثريون أن الأتراك الغربيين أقاموه في القرن السادس الميلادي وهو يشرف على المناطق المتاخمة لباميان من ناحية الشرق . ووادي نهر باميان المواجه للحصن مليء بأحراش من أشجار الحور تمتد مسافة طويلة ، وبلى الأحراش بساتين الفاكة ومن ورائها حقول القمح . وعندما كنا في وادي باميان في منتصف مايو كانت أشجار الفاكة قد بدأت تنبت زهراً وحقول القمح لا تزال نباتاً قصيراً قريباً من سطح الأرض . وأذكر أننا عندما كنا في سهل بشاور في مارس كانت أشجار الفاكة قد أزهرت زهراً كاملاً ، أما في راجستان فقد كان الفلاحون يدرسون القمح في شهر إبريل ، ولكن لا تنسى أن فصول السنة في باميان تعكس جوا يرتفع عن سطح البحر بمقدار ٨٣٠٠ قدم .

وهنا يتسع الوادي شيئاً فشيئاً ولكن في نهاية الوادي تشاهد صفا من الصخور الشديدة الانحدار تتخللها كهوف نحتها الرهبان البوذيون في قلب الصخور . وكلما اقترب صف الكهوف من بوذا الأصفر اشتد تقاربها حتى تكاد تكون ملاصقة لبعضها إذا ما وصلت إلى تمثال بوذا الأكبر . والتماثلان مقامان داخل كوة منحوتة في الصخر . وخير مكان تشاهد منه باميان هو قمة شهر جلجلة فهي التي تشرف على الوادي اشراقاً كاملاً من جهة الجنوب . ومن هذا المكان تشاهد أمامك صفان من الجبال العالية التي يغطي الثلج قممها حتى في شهر مايو . والسلسلة الجبلية من هذه الجبال هي سلسلة كوة بابا وهي امتداد لجبال هندوكوش . وامتداد وادي باميان من الخائق الجبلي الذي خرج منه إلى الخائق الآخر الذي ينحدر إليه يبلغ ١٧ ميلاً . وهذه المسافة هي نفسها امتداد الحقول الخضراء من أقصى الطرف الشرقي إلى أقصى الطرف الغربي ، أما عرض هذا الجبل فإنه لا يزيد عن نصف ميل . وهكذا تجد الخوائق تجمعه والقمم العالية المغطاة بالثلج واحة من الأرض الحصبة ليس لها مثيل .

لم ينحرف طريق السفر عن وادي باميان إلا في السنين الأخيرة بعد استخدام

السيارات كوسيلة للنقل والانتقال . أما قبل ذلك التاريخ فقد كان وادى باميان هو الطريق الذى يتخذ المتقل من حوض آمورداريا إلى حوض السند .

وظل الحال كذلك عشرات القرون . ولم يكن المسافر يمر بوادى باميان فقط بل كان يلتقى هناك عصا الترحال إلى فترة ما حتى يستريح من عناء السفر . وكانت فترة الاستجمام فى وادى باميان تمتد أياما ، بل أسابيع حتى شهورا بأكملها . ولما أن أتاح وادى باميان للبوذية الانتقال من الهند إلى شرق آسيا عبر هندوكوش فقد أظهر أتباعها امتنانهم له بإقامة تمثال بوذا اللذان سبق ذكرهما .

وقد بطلت ممارسة البوذية فى الوادى منذ ما يقرب من إحد عشر قرناً ، ولكن الهدوء والسكينة وهما من خصائص البوذية لا يزالان يسودان جو المكان ، فكل ما يحيط بك فى هذه البقعة من الأرض يوحى إليك بالسكينة والسلام . وكلما تأملت ، كلما أحسست بأن هذه السكينة تنزل رويداً على نفسك الغريبة القلقة .

## ٣٠ - عبور هندوكوش للمرة الثانية

كانت باميان آخر محطة في رحلتنا الدائرة حول أفغانستان ، والمفهوم أن عودتنا إلى كابل بالسيارة لن تستغرق أكثر من يوم واحد ولكن لاتنسى أن المقيم في باميان يكون على الجانب الآخر من هندوكوش ، وليس عبور هندوكوش بالأمر الهين ، وقد أثبتت لنا ذلك تجربتنا المرة عندما عبرنا السلسلة الوعرة فيما بين هيرات وقلعة نو ، وإذا كان ممر سبذك قد اذاقنا الأمرين فانه على أى حال لا يزيد في الارتفاع عن ٨٠٠٠ قدم ، أما ممر شيبار الذى أمامنا الآن. فهو يرتفع عن سطح البحر بمقدار ٩٨٠٠ قدم . ولا بد من اختراقه كي نصل إلى كابل .

اتخذنا نهر وادى سورخاب طريقا لنا في هذه المرة وكلما سرنا مع مجرى النهر كلما اتسع الوادى وشح ماء النهر حتى اختفى نهائيا ووجدنا أنفسنا فوق عتبة بين الجبال المكسوة بالثلوج ، ففي جنوبنا جبال كوه بابا ، وفي شمالنا جبال سالانج التى هى امتداد لجبال هندوكوش . انتهينا من العتبة الجبلية إلى واد منخفض به منابع نهر تبين لنا أنها منابع نهر غبور باند . ومادام هذا هو نهر غبور باند فنحن الآن فوق ممر شيبار . ومعنى هذا أننا اجتزنا خط تقسيم المياه بين نهري أمور داريا والسند .

ان نهر غورباند نهر غريب الأطوار ، فهو فى مجاريه العليا ذو منظر جذاب يشير نفسك الشاعرية حتى ليخيل إليك أنك فى انجلترا منطقة البحيرات التى أثارت شاعرية ورد سورت .

وهناك يستطيع حمل صغير أن يعبر النهر بدون أن يتل حافراه . ولكن

بعد قليل يتقلب الحال غير الحال ويصبح هذا النهر الوديع سيلا جارفا غاضبا  
مزجرا يغمر الوادى بمياه فيضانه ويغرق الزرع ويقتلع الأشجار .

ليس هذا من عمل غورباند وإنما هي نهيراته التي سببت هذه الاساءة .  
فالنهيرات تتدافع إليه من الشقوق الجبلية فى قوة وعنف من اليمين ومن  
اليسار وقد مررنا بعدد من هذه النهيرات لا يقل عن ستة عشر نهيرا .

لقد كان اثنان من هذه النهيرات غاية فى العنف حتى لقد وقفت حركة  
المروور عند أحدها وقوفا تاما لفترة طويلة بسبب اللوريات التي اغرقها السيل  
ولولا ما كان لدينا من سلاسل استطعنا بها أن نجر بعض اللوريات من وسط  
السيل لما أمكن استئناف المروور فى هذه المنطقة .

وأشد من ذلك خطرا أننا اوشكنا على الاصطدام بمؤخرة إحدى ماكينات  
تسوية الأرض وكانت تحاول جر سيارة من وسط السيول .

وأخيرا استطعنا التخلص من كل تلك المآزق التي سببها لنا نهر غورباند  
ونهيراته ، وألفينا أنفسنا على أبواب كابل .

### ٣١ - الانتقال بالسيارة أم على الاقدام

يحسن بمن يريد دراسة طرق المواصلات في أفغانستان أن يبدأ أولاً بدراسة هذه الطرق قبل استخدام الوسائل الميكانيكية الحديثة وخير من ذلك أن يصطحب تلك القوافل التي لاتزال تنقل سيرا على الأقدام لا بواسطة النقل الميكانيكي ، وإذا استطاع أثناء رحلة القافلة أن يكسب ثقة الدليل ويحصل على ماله من علم بتاريخ الانتقال في أفغانستان فسوف يحصل على معلومات تاريخية تتضائل بجانبها المعلومات التي يهبها له الانتقال بالسيارات .

أن خريطة طرق المواصلات الحالية في أفغانستان هي اسوأ مرشد إلى الخريطة التقليدية التي تعتمد على طرق القوافل . حقيقة أن الطرق الحديثة التي شقت وسط الخوانق والممرات الجبلية أكثر أماناً وأعظم سرعة ولكنها تخفي معالم التاريخ الأفغاني اخفاء يكاد يكون تاماً . أن مهندسي الطرق الحديثة تغريه الخوانق الجبلية فهي لا تكلفه أكثر من كمية من المفرقات وبعض ماكينات الإصلاح حتى يشق طريقاً قصيراً بدلاً من الدوران حول الجبال أو تسلق الأكام والمرئفات .

ولكن هذا المهندس يحسن صنعاً لو أنه استشار دليل القافلة قبل أن يعتمد إلى شق طرق محاذ لمجرى نهر ، ذلك لأن هؤلاء الأدلاء هم خير من يعرف مساوىء المجارى المائية في أفغانستان من طول ما كابدوا شرورها .

لقد تعلمت القوافل بالخبرة الطويلة ان تتجنب الخوانق ذلك انه قد ثبت لديها ان ألد أعداء المسافرين هو فيضان نهر عند انحداره إلى خائق . وخير له هنا ان يتسلق جيلاً وعراً او يهبط منحدرًا شديدًا من ان يواجه مثل هذا النهر المحتق .

ولقد عرف رواد القوافل من الخبرة الطويلة على توالي العصور كيف يستخدمون احسن الطرق فوق جبال أفغانستان . والرأى الخبير يعرف كيف يختار طريقه متجنباً الأدغال والفيضانات . أضف إلى ذلك أن الإنسان قد يتنقل راجلاً عبر أما كن يستحيل على وسائل النقل الميكانيكى أن ترتادها .

والذى يستخلص من ذلك أنك إذا لزمك الوسائل الميكانيكية فقط فإن كثيراً من مشاهد أفغانستان سوف يظل مغلقاً أمامك .

وخريطة طرق المواصلات القديمة فى أفغانستان تختلف اختلافاً كلياً عن الخريطة الحديثة فمثلاً باميان وبجرام لا تظهران على الخرائط الحديثة مع ما لهما من أهمية تاريخية كبيرة فى مواصلات أفغانستان . فمدينة باميان فى الوقت الحاضر تقع على طريق جانبي ولا يطررها إلا فئة محدودة من السائحين .

أما بجرام فهى ليست على طريق أصلا ومن الصعب جداً — بل من المستحيل أن تصل إليها بالسيارات . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المدينتان المركزين الرئيسيين للمواصلات عبر جبال هندوكوش منذ فجر التاريخ إلى ما قبل الوقت الحاضر . وكانت كل الطرق تمر بإحداها أو بالأخرى أو بكليهما معاً .

وأنى أنصح المؤرخين بأن يلقوا الخرائط الحديثة وطرق المواصلات الميكانيكية جانباً وأن يعتمدوا على طرق القوافل . وإذا أردت أن تؤرخ عن أفغانستان عليك بالسير على قدميك فهذا بداية الحكمة .

## ٣٢ - منار جكرى

كنت قد أوشكت على مغادرة أفغانستان دون رؤية مثذنة جام ، وهذه شقيقة إلى قطب منار فى دلهى . وقد قدر لكل منهما يوماً ما أن تعلو شاذخة فوق عاصمة كبرى . لقد كان للأمبراطورية النورية عاصمتان إحداهما فى دلهى فى هندوستان المحتلة والثانية فى جام وهى الوطن الأصلى للغوريين حيث نشأوا فى الوادى الأعلى لنهر هارى رود . ولا تزال دلهى مدينة كبرى قائمة حتى اليوم ، أما جام فلم يبق لها من أثر إلا مثذنتها العظيمة التى تقف شاهداً على ما كان لهذا المكان من عظمة ومجد فى القرن الثانى عشر الميلادى . وفى العصر الأخير للنهضة التيمورية كانت جام مسقط رأس آخر شعراء فارس القدماء وهو جامى الذى دفن فى هيرات .

لقد دعانى البروفسور شلومبرجر رئيس البعثة الأثرية الفرنسية فى أفغانستان لزيارة منار جكرى ، فلبيت الدعوة شاكرًا .

ان قاعدة المنار تقع فى أسفل مسدر جيلى يمر به طريق القوافل بين كابل وجلال آباد ، أما عمود المنار فهو مقام فى مكان ظاهر على حافة الجبل . انتقلنا إلى هناك فى سيارة ولما اقتربنا من منار جكرى . ترجلنا وتسلقنا المنحدر حتى بلغنا قاعدة المثذنة وهناك استمتعنا بمشاهدة فن الزخرفة الدقيق على هذه القاعدة وبعد ذلك شرعنا تسلق عمود المنار نفسه ، وقد استغرق منا هذا العمل أربع ساعات للصعود والتزول .

أن منار جكرى أثر تحيظ به الأسوار . وعمود المنار عليه نفس الزخرفة والنقوش التى شاهدناها على القاعدة وكلاهما يدل على أنهما أقبا معاً فى عصر الكوشانيين . ومهما يكن من أمر هذا الشاهد التاريخى فهو مزيج من فن العمارة الأغريقى والفارسى .

فتاج العمود يذكر برؤوس الأعمدة الفارسية التي كانت شائعة في فن العمارة في عصر الأسرة الأخمينية وترى مثلها في مدينة برسبوليس (اصطخر) ، ومن ناحية أخرى تبرز أمامك خصائص فن العمارة الاغريقية في أحزمة الزخارف الثلاثية التي تزين العمود في أماكن مختلفة وهي المصطبة والأفريز والكورنيش . وهنا تساءل . من الذي اقام هذا العمود الضخم وعلى هذا المرتفع الهائل ؟ وما سبب إقامته ؟ لقد تكلف مجهوداً بشرياً هائلاً وإذن فلا بد وأن يكون قد أقيم تخليداً لذكرى شخص عظيم سواء كان إنساناً أو معبوداً ، وقد تكن إقامته تخليداً لذكرى حادث عظيم تاريخي كائن أو أسطوري .

انك إذا وقفت على حافة الجبل ونظرت إلى منار جكري وجدت أن القاعدة التي زرناها ليست إلا واحدة ضمن سلسلة طويلة أقيمت على شكل نصف دائرة على سفح الجبل . وبجانبا تشاهد مجموعة من الأديرة أو المعابد التي تتجاور سلسلة القواعد . فإذا تلفت يسرة رأيت عموداً آخر قائماً فوق قمة جبل صغير . وفي أسفل المنحدر تشاهد حوشاً من الأشجار يعين لك موقع مدينة كابل القديمة وهي الآن مدفونة تحت الأرض ولا تستطيع ان تصل إليها معرفة العالم الا ترى .

فإذا تلفت يمينه الفيتك تواجه من جهة الشمال الغربي قم نورستان الشاخنة التي تغطيها الثلوج . ومن ناحية أخرى تشاهد الحافة الشرقية لمرتفعات أفغانستان الوسط . وهذه المرتفعات تحجب عنك هزارة جات ثم غور التي تحرس منار جام . وفي الوسط ترى ممر سالانج وهو أعلي وأقصى طريقاً بين عالمين . بين حوض أمورداريا والسند .

فإذا سرحت يصر ك من قاعدة منار جكري خيل إليك أن السور الجبلي الأبيض كأنه خط مستقيم .

يا له من منظر جليل ! انتى هنا وأنا واقف عند قاعدة منار جكري اعتقد أن نصف تاريخ العالم القديم يتمثل في هذه البقعة من الأرض .

ان أصداء التاريخ قد امتصتها تلك القمم الشاخنة كما امتصت ثلوج سيبيريا حيوان الماموث .

وعندما هبطت درجات قاعدة المنار تلفت حولى فلم أجد أثرا للحياة .  
ليست هناك نبتة واحدة ولا قطرة ماء . والصخور قائمة . منتصبه كأنها  
ظهر حلوف ، ان الحياة هنا تمتع عز أى كائن حى ، حتى ولو كان عنزة تحيا على  
اتفه العشب .

ولكن ماذا هناك ؟ انه زوج من الإبل ! بل زوجان ، بل ثلاثة ! يا للغرابة !  
إنها قابضة فى مناخها على قائم الصخر — تجتر ناعمة وكأنها ربات خدور على  
فراش وثير .

يا للعجب ! ولكن ، لا عجب فنحن الآن فى أفغانستان .  
ان الطبيعة خشنة قاسية ، ولكن الكائن الحى هنا أشد منها خشونة وصلابة .

---

### ٣٣ - خط تقسيم المياه

أخيراً وصلت إلى خط تقسيم المياه بين الأنهر المختلفة التي تنبع من الطرف الجنوبي لسلسلة جبال هندوكوش . ولطالما وضعت الخريطة أمامي وقرأت عليها أسماء تلك الأنهار الآسيوية وشاهدت منابعها ، ولكن قراءة الخريطة شيء ومشاهدة الواقع شيء آخر . فكل ما أمامي الآن يختلف اختلافاً كلياً عن تلك الصورة الذهنية التي خلقتها قراءة الخريطة .

كنت واقفاً على سور أحد القلاع الخربة على واجهة جرف صخري وتحت قدمي كميات كبيرة من الماء المتجمع تدور حركة دائرية عنيفة ثم تنطلق في سرعة جنونية فوق المنحدر . وكان على يساري خط تقسيم المياه الذي يغذي هذه المياه المتدفقة . ومن أعلى السور كنت أشرف على مداخل الوديان الأربعة التي تتدافع على أرضها أنهار أربعة تتبع كلها من منطقة واحدة . وكانت ثلاثة من هذه الوديان تؤدي إلى ممرات جبلية ، فوادي غورباند يؤدي إلى ممر شيبار ، ووادي بانجير يؤدي إلى ممر خاداك ، ووادي سالانج يؤدي إلى ممر سالانج ، أما الأقليم الأخضر الداكن الواقع بين أقصى شاطئ نهرى وبين السفح الجنوبي لجبل هندوكوش فهو إقليم كوهستان أى بلاد الجبل ، والقلعة التي كنت على أسوارها منذ قليل هي الطرف الشمالى الأقصى لمدينة كايشا الأثرية التي تعرف اليوم باسم بجرام .

وعندما كنت أطل على مجرى الماء من أعلى سور القلعة شاهدت طوقاً مشدوداً إلى حصان عائم فتأكدت ان هذا المكان كان موضعاً للعبور منذ فجر التاريخ . وقد كان الماء الجارى يطوف بمنة ويسرة ، وهذا دليل على ان اختيار هذا المكان لإقامة القلعة دليل على أنه مركز استراتيجى هام ، فسور القلعة الذى وقفت عليه يشرف على معبر النهر إشرافاً تاماً . ولو أنك أوقفت على هذا السور

حفنة من الرماة لما استطاع حيش كامل أن يغامر بعبور مجرى الماء في هذا المكان وقد شاهدت على بعد من معبر النهر أسراباً من الطيور الكبيرة البيضاء وهي في أمكنتها كالديدايان يقوم بالحراسة دون أن يعنى بمن في المكان من آدميين . وعلى الرغم من أنها كانت على مرعى بندقية فلم تتحرك من أماكنها ، ولا غرابة في ذلك إذا علمت أنها لم تكن طيوراً حقيقية ولكنها دمي وضعت في أماكنها لإغراء الطيور .

ذلك أن هناك فصلاً لهجرة الطيور حيث تهاجر أسراب هائلة من الطيور من الهند إلى هندوكوش عندما يشتد القيظ . ولقد تعلمت هذه الطيور من خبرتها الطويلة أن هذا هو أفضل مكان للمرور فوق الحاجز الجبلي العظيم الارتفاع . وتستطيع هذه الطيور اجتياز الجبال من هذه البقعة طالما كان الجو مواتياً ، ولكن في بعض السنين يسوء الجو في الجبال فتهب من فوقها رياح شمالية باردة تسمى بادي بارافان تبعث الرعب في النفوس بحيث يعجز الإنسان والحيوان والطيور عن احتمال قسوتها . وهنا تصبح الفرصة مواتية لصيادي الطيور في أن تهزم الطيور أمام قسوة الرياح الباردة حتى تعود أدراجها محاولة البحث عن مأوى .

وهنا تبصر الدمي المصنوعة على شكل طير فتخط بجوارها وبذلك تصبح هدفاً سهلاً للصياد . وبعد أن اتينا من مشاهدة المياه الجارية والطيور الزائفة اتجهنا نحو مجرام حيث عثرت البعثة الفرنسية على كنوزها الأثرية . وما أن بلغنا المكان حتى وقع بصري على كوه بهلوان وهو جبل منعزل مطل على النهر . إن هذا الجبل يعتبر قزماً إذا ما قيس بجبال هندوكوش الشاهقة . ولكن عزله يجعله علماً من معالم الطريق .

يوم وصولي إلى أفغانستان كان هذا الجبل على مرآي مني ولكن لم أستطيع بلوغه ، أما اليوم فأنا على مقربة منه وليس هناك عائق يمنعني من الوصول إليه خاصة وقد علمت أن الجانب المطل على النهر من هذا الجبل هو شوتوراك المشهور . لقد أخبرني الأستاذ كوه زاد أن لفظ شوتوراك معناه « الفصيل » أو الجمل الصغير . وهنا يبرز جانب الجبل حتى كأنه غرس في مجرى النهر .

فإذا ما أطل الانسان على المياه المتدافقة الصاخبة في أسفل رأى الأمواج من فوقها وكأنها طبقة من الوبر على ظهير بعير ، ومن هنا جاءت التسمية .

إن هذا المكان فيه مغناطيسية عجيبة تجذب اليه السائح . فعلى جوانب الجبال تجدد صفوفاً من المعابد البوذية المهجورة : ومجاميع من قواعد أعمدة المنارات ، وخطوطاً طويلة من الخلوات التي كان يتعبد فيها الرهبان البوذيون .

واشد هذه المعابد القديمة روعة ، ذلك الذي يطلق عليه اسم « شهر زاد الصين » أى الأمراء الصينيين . ذلك أن هذا المعبد اختص باحتجاز أمراء الصين كرهائن لدى امبراطور كوشان في عاصمته كانشكا ، ويقال إن الامبراطور كان يكرم هؤلاء النبلاء الأحرى بأن يقيم معهم في المعبد شهراً كل عام .

إن ما حولنا من مظاهر النهر والحقول وبساتين الفاكهة والجبال فهو منظر ساحر حقاً يأخذ بمجامع القلوب . ولو قدر لي ان أمضى فترة من حياتي في معتقل فليس أفضل لدى من معتقل شهر زاد الصين .

## ٣٤ - العردة

في آخر مرحلة من مراحل جولتنا في أفغانستان ، دخلنا مدينة كابل مرة ثانية ، وفي أثناء اتجاهنا إلى شرق المدينة وجهنا لأحد رجال بوليس المرور السؤال التالي :

تأنج جارو أو لاتا باند ؟ ان الطريق بين كابل ، وجلال اباد عن طريق الحائق يبلغ طوله نصف الطريق الجبلى بشرط ألا يكون نهر كابل في شدته وعنفه . وقد رد رجل البوليس على سؤالنا قائلاً : تأنج جارو ، ولذلك فإننا في هذه المرة اتبعنا طريق النهر حتى اختفى في الحائق ، ومن هنا تتبعناه في طرق متعرجة وفي داخل الأنفاق وعلى المنحدر الجبلى ، وهنا انفرج النهر وأصبح ضعف حجمه السابق بعد التقائه بنهر بانجير . لقد رأيت نهر بانجير منذ يومين وهو يجمع مياه نهيرات ثلاثة ويندفع على طول سفح كوه بهلوان في طريقه إلى نيجارا تاجارو . وهو اليوم يشق طريقه وسط الآثار البوذية ثم يندفع ملتقياً بنهر كابل ، وبعد ملقى بانجير بكابل سرنا حتى وصلنا ساروبى ومنها إلى طور خام . وما أن بلغنا هذه المرحلة حتى تنفست الصعداء كفأر فر من بين مخالب القط .

عند داروتا يلتقى نهر كابل بنهر سورخاب وهنا أيضاً تجد الطريق القديم بين كابل ، وجلال اباد . ان هذا الطريق قد بطل استعماله بعد أن استطاع المهندس الحديث شق الطرق في الحوائق والممرات الجبلية ، ولكن هذا الطريق القديم المهجور ملى بالآثار . فالزاوية التى عند ملتقى النهرين تحوى عدداً من القواعد الحجرية البوذية كما أن وادى سورخاب يضم بساتين الأباطرة المغول التى اعتادوا الاستراحة فيها قبل عبور عمرخورد كابل ، لقد كانت نيملا الشهيرة بقواعد المنارات بعيدة عن الطريق الذى سلكناه ، ولكنى توقفت قليلاً لزيارة أحد هذه القواعد .

وقد وجدت مرشداً قادني إلى هذه القاعدة واستطعت بمساعدته أن أتسلقها حتى القمة ، وعلي الرغم من أنني تجشمت صعباً كثيرة في التسلق إلا أنني وجدت أخيراً ما عوضني عن تعبي خيراً . لقد كانت جبال سافد كوه تحدد الأفق الجنوبي . وسافد كوه معناها الجبل الأبيض وقد أطلق هذا الاسم على جبل سافد كوه نظراً لأن قمته يكسوها الثلج على مدار السنة . فإذا ما اتجهت يصرك صوب الشمال وجدت أمامك قمم نورستان الشاخنة .

كان الصباح التالي آخر عهدي بأفغانستان . والواقع أنني غادرت هذا البلد الجميل على مضض ، فقد لقيت من كرم الوفادة ومن المناظر الطبيعية ومن المشاهد التاريخية ما تمنيت معه أن أطيل المقام . ومع ذلك فقد تباطأت قليلاً لمشاهدة الآثار البوذية في حدّا .

ولما كان بيني وبين رفاقي موعداً على الرحيل ظهراً إلى باكستان فقد اتجهنا شرقاً في طريق مرصوف .

كان على يسارنا نهر كابل وقد انحدر من السهل إلى خائق جبلي جديد وهو الخائق الذي يختفي النهر عند أوله في وارسك ليبرز مرة ثانية في الجانب الباكستاني . وعلى الطرف الغربي الأقصى للحافة الجبلية التي يوجد في أسفلها عمر خير شاهدنا أحد حصون باكستان عبر الحدود . وهنا استأذن مرافقي الأفغاني في العودة . إن سلسلة طورخام تفصل عالمين مختلفين كما لو كان بينهما البحر المحيط .

ذكرني الانتقال من أفغانستان إلى باكستان بمحادث انتقال كنتجيك من النمسا إلى تركيا ولكن كان يجب أن يكون هناك فارق بين الحالتين ، فالانتقال من النمسا إلى تركيا في القرن التاسع عشر كانت تحوطه قيود شديدة فرضتها ظروف سياسية واجتماعية ودينية تجعلهما مختلفتان عن بعضهما كل الاختلاف ولكننا اليوم أمام بلدين إسلاميين وعلى جانبي الحدود تسمع لغة الباشتو ورغم ذلك فإن القيود المفروضة على الحدود بين أفغانستان وباكستان أشد من تلك التي كانت مفروضة على الانتقال بين النمسا وتركيا في القرن التاسع عشر .

ولسنا السياسة مصدر كل شر .

## ٣٥ - سمبر هو لبر الزى :

لقد كان التاريخ بالنسبة لأفغانستان فيضاً غامراً وقحطاً مدمراً . فطالما كانت هذه البلاد فريسة لنكبات تاريخية لاتقل في قوتها التدميرية عن الفيضانات السنوية التي تكتسح كل ما تصادفه .

لقد أتاحت جبال أفغانستان للشعب الأفغانى الفرصة للمحافظة على استقلاله أو على الأقل استعادته بعد أن ضاع لفترة ما . ان جبال هندوكوش عملاق هائل ولكن فى بعض المواضع لا تزيد فى ارتفاعها عن نصف ارتفاع الجبال التى تعزل جلجيت ، فهذه من أعلى جبال العالم .

ويفضل هذه الجبال الشاهقة ظلت جلجيت بلا تاريخ حتى عهد قريب . أن تاريخ جلجيت يكاد يكون صفحة بيضاء ويبدو أن أهلها كانوا فى الأصل بوذيين قبل أن يعتقوا الاسلام فجارتها الشرقية لا داخ لا تزال بوذية حتى اليوم ، كما أن جارتها الغربية افغانستان ظلت بوذية حتى القرن التاسع الميلادى . ولكن متى تحولت جلجيت إلى البوذية ؟ ومتى تحولت من البوذية إلى الإسلام ؟ ليس لدينا سند تاريخى ليثبت هذين الحدين العظيمين ، بل لقد ظل تاريخ هذا البلد خالياً من الحوادث الهامة حتى عام ١٩٤٧ ، عندما تفككت امبراطورية الهند البريطانية . ومنذ ذلك التاريخ اكتسح جلجيت تيار التاريخ الجارف .

فى عام ١٩٤٧ ضمت حكومة الهند البريطانية إقليم جلجيتان ولاية كشمير ويبدو ان هذا الضم جاء طبقاً للأوضاع الجغرافية السائدة فى ذلك الحين .

ذلك ان جلجيت لم يكن لديها من وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى إلا عن الطريق الذى يربطها بمدينة سريخار فى كشمير وقد بدى فعلا فى وضع قرار

حكومة الهند موضع التنفيذ فتوجه مندوبون من قبل حاكم كشمير إلى جلعيت وبد - يطرون عليها . ولكن حكم كشمير لاقليم جلعيت كان قصير الأجل .

فأهالي جلعيت مسلمون وحاكم كشمير هندوسي ، وقد كان الجلعيتيون أكثر توفيقا من الكشميريين في التخلص من الحكم الهندوس وقد قامت جلعيت عن يكرة أبيها بثورة ضد هذا الحكم الهندوسي محتمة بجبالها ، ولكنها كانت ثورة يضاء لم ترق فيها نقطة من الدماء . فطردت حكامها من قبل حاكم كشمير وارتدت في أحضان باكستان . وهنا فقد اكتشف الجلعيتيون لأول مرة أنهم يعيشون في عصر الطيران . واشتركت جلعيت في المعركة القائمة بين باكستان والهند من أجل كشمير ولما عجزت القوات الهندية عن الاستيلاء على جلعيت برا لمناعة جبالها ألقت عليها القنابل من الجو ، وظل الطيران الهندي يضرب جلعيت بالقنابل من الجو طوال ستة شهور حتى أعلن وقف إطلاق النار بين الجانبين الباكستاني والهندي .

غير أن عودة السلام لم يؤد إلى اختفاء الطيران من جو جلعيت فقد حلت وحدات من السلاح الجوي الباكستاني بأرض جلعيت وبقيت بها حتى اليوم . وتعتمد جلعيت على ما ينقل إليها جوا من موارد غذائية وادوات أخرى مثل برلين الغربية . ولقد شقت حكومة باكستان بعد أن أغلق الطريق الذي كان يربط جلعيت بسرنخار سابقا وهو الذي بقي في أيدي الهند حتى اليوم . ولكن هذا الطريق مغلق في أغلب شهور السنة لرداءة الطقس وتكاثف طبقات الثلوج ، ويحاول الباكستانيون اليوم شق طريق آخر في الخائق الجبلي الذي يجري فيه نهر السند الأعلى . وهذا الطريق عندما يتم انشاؤه سوف يظل مفتوحا طوال أيام السنة وبذلك تتصل جلعيت بالعالم الخارجي اتصالا دائما كل أيام السنة . والطيران فن روال يندي (العاصمة الجديدة لباكستان ) إلى جلعيت لا يستغرق أكثر من ساعة ولكنها ساعة تقطع كل صلة بين راكب الطائرة وبين سكان الأرض وما أن تمس عجلات الطائرة أرض المطار حتى تفيق من ذهولك وكأنك بعثت إلى هذا العالم من جديد ..

## ٣٦ - طريق السيارات الى سف الف الدنيا

عندما تمر الكوبرى المعلق فى جلبيت وتسير فى وادى هونزا فانت الآن فى طريقك الى البامير وسكيانج ، ولكن السيارة لا تحملك كل الطريق فبعد قليل يتحول طريق السيارات الى طريق لدواب الحمل ومن ثم الى طريق للمشاة فقط . لقد سرنا فى هذا الطريق مسافة أربعين ميلا حتى قربنا من راكاوش . وقة راكاوش يبلغ ارتفاعها ٢٥,٥٥٠ قدماً وهى جبلة التركيب وكأنها جسم كائن حى . أما نهر هونزا فهو كبقية الأنهار التى تسير فى الحوانق فهو يقفز من منحدر الى منحدر ويدور مأوه دوراناً عنيفاً حول كل صخرة يمر بها ولا يترك مجالا لطريق بجانبه ، والوسيلة الوحيدة لإيجاد طريق هنا هو شقة فى الصخر . كذلك يمكن ان يشق فى الصخر طريق صالح لسيارات الجيب . ومثل هذا السفر غاية فى الخطورة وخاصة عند مروره بجانب هاوية سحيقة .

وإذا ما التقت سيارة الجيب بأحدى دواب الحمل كحمار مثلاً قادم من الجهة المقابلة فهنا مشكلة كبرى . وإذا كان الحمار يحمل ثقلاً فهذا عين الخطر . ذلك أن الحمار إذا هاج لمنظر السيارة وأتى حركة غير متوازية فقد يطيح بالعربة الجيب ومن فيها الى هاوية سحيقة .

ولكن ما العمل إذا تقابلت سيارتان وجهاً لوجه ؟ .

لقد قاسينا مثل هذه التجربة الخطيرة . فبينما كنا نجتاز إحدى القمم إذا بسيارة جيب قادمة من الجهة المقابلة . وهنا أتخذ سائق سيارتنا الموقف ، إذ أنه زاد من سرعة السيارة حتى بلغت بنامكانا متسعاً الى حد ما قبل أن تبلغه السيارة القادمة من المقابلة ، وهناك وقفنا حتى مرت السيارة الأخرى من جانبنا ولو انحرفت عند مروها قيد شعرة لألقت بنا فى الهاوية .

لقد أطلت في وصف طريق سيارات الجيب فوق وادي هونزا - بالقرب من قه را كايوش ولكن مهما طال الوصف فلن أستطيع أن أبين لك الأخطاء التي تكثف السفر عن هذا الطريق .

ولكن ما رأيك في طريق دواب الحمل فوق الصخور ؟ لقد نظرت في اتجاه القمم العالية فشاهدت ما يشبه خدوشا في السفح ، ولما سألت عما هي هذه الخدوش ، قيل لي أنها طريق البغال والحمر فوق الجبل تصور مسيرة خمسين يوما بين سريبخار وكشغر وأنت معلق على حافة الهاوية تتوقع الموت في كل لحظة .

### ٣٧ - عشرة أعيال إلى تشترال :

في ٢٨ مايو قررت التوجه إلى تشترال ولكننا علمنا يسقوط كميات كبيرة من الجليد فوق ممر لواري وهو طريقنا الوحيد إلى تشترال من داخل باكستان . ولكن من يعلم إلى متى يستمر سقوط الجليد في هذا العام الذي يسوده الطقس الرديء ؟ لقد أبلغني أحد رجال السلاح الحربي في بشاور أن الممر سوف يظل معطلا لفترة قد تمتد عدة أسابيع كاملة .

ولكن مسجل جامعة بشاور أبلغني بدوره أن الطريق جيد في الوقت الحاضر وأنه قد أعد أوراق الامتحان لإرسالها إلى تشترال . وتبين لي بعد ذلك أن تقدير المسجل كان خاطئاً . ذلك أنه سوف يرسل أوراق الامتحان مع حمال والحمالون هناك مهرة يتنقلون على هذا الطريق في الجو الطيب والجو الرديء . ولكن في بعض الأحيان يسوء الجو حتى ليعجز هؤلاء الحمالون أنفسهم عن السير في الطريق حيث يكون مغطى بطبقة من الثلج لمسافة قد تمتد إلى خمسة عشر ميلاً . وتتدفق السيول الجارفة فوق الطرق المغطاة بالثلج ولا يلبث ماء السيل أن يتجمد من شدة البرد — وإذا كان من سوء حظك أن واجهتك عاصفة ثلجية فأنت هالك لا محالة . ولقد لقي حوالي سبعين شخصاً حتفهم على هذا الطريق في العام الماضي .

وبعد أن تلقينا كل هذه المعلومات عدلنا عن زيارة تشترال في هذا الفصل من السنة .

## ٣٨ - دير وسوات

هناك عناصر هامة تعتبر عاملاً مشتركاً بين ولايتي دير وسوات فالأثنان ضمن خمس من الولايات ذات الاستقلال الذاتي الباقية داخل حدود باكستان . أما الثلاث الأخرى فهي تشترال وناجيار وهونزا . وباقي الولايات اندمجت في باكستان الغربية وأصبحت جزء منها . فمثلاً بها واليوم وخانات (مارات) بلد خستان لم يعد لها وجود على الخريطة الإدارية لباكستان . ولكنك إذا اطلعت على الجزء الشمالي من هذه الخريطة تجد دير وسوات لا تزال قائمة بل أنهما مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً . وسكان هاتين الولايتين من الباتان من قبيلة يوسف زاي . ولن تستطيع أن تخضع الباتانيين لحكم خارجي إلا إذا أوتيت حركة سياسية تفوق كل حد . ونظام الحكم في كل من الولايتين هو النظام القبلي الذي يسلم زمام الأمن لشخص واحد ولكن فيما عدا العنصرية الباتانية ونظام الحكم فإن الولايتين تختلفان عن بعضهما اختلافاً كاملاً في كل شيء آخر . فولاية دير لا يقل عمرها عن ثلاثمائة عام . فقد كانت موجودة عندما كانت أمبراطورية المغولي في أوج عظمتها ومع ذلك تخضع لسلطان المغولي مطلقاً . أما ولاية سوات فقد أنشئت منذ عهد قريب . وقد كان ذلك بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٦ .

ولا يزال مؤسسها على قيد الحياة وإن كان قد تنازل عن الحكم منذ سنوات لصالح ابنه وذلك لكي يكرس باقي حياته للعبادة . وكان تأسيس ولاية سوات تحدياً لولاية دير التي ادعت أن لها حق السيادة على وادي سوات . وعلى الرغم من أن حكومة الهند البريطانية ومن بعدها حكومه باكستان قد اعترفتا بأن ولاية سوات هي من ضمن الورثة الشرعيين للحكم البريطاني في الهند فإن نواب ولاية دير ( حاكم أو أمير ولاية دير ) لم يعترف بحكومة سوات مطلقاً ولا يزال يلقب نفسه « نواب دير دسوات » وتسير حكومة سوات على مذهب الأحرار

فى تنفق كل ما تستطيع إنفاقه على إنشاء المستشفيات وشق الطرق وتأسيس المدارس . أما ولاية دير فهى تتبع سياسة المحافظين وقد أنشأت حديثاً مستشفى واحد فى العاصمة ، أما الطريق الذى هو الشريان الحيوى الوحيد فى ولاية دير فإن حكومة باكستان هى التى تشرف عليه . والسيارات العامة التى تستخدم على هذا الطريق الرئيسى الذى شقته حكومة الهندالبريطانية وتقوم على حياته حكومة باكستان حالياً ملك للحكومة وهذا بخلاف ما هو حاصل فى ولاية سوات فإن وسائل النقل وما عداها من الأشغال العامة كلها ملك للأفراد .

أنك فى ولاية سوات تستطيع أن تمسك بسماعة التليفون وتتصل بأى شخص سواء كان فى باكستان أو فى أى بلد خارجى . وولاية دير لها شبكتها التليفونية الخاصة بها ولكنها فى عزلة عن كل مواصلات تليفونية خارجية ولو أمسكت بسماعة التليفون وطلبت الاتصال بشخص خارج حدود الولاية فلا بد وأن يعرف الحاكم سبب اتصالك بشخص خارج حدود البلاد . وإذا تمت الموافقة أخيراً على هذا الاتصال التليفونى فلا بد من موصلة تليفونية أخرى تربطك بشبكة تليفونات باكستان . والكلمة الأخيرة فى أوجه الاختلاف بين ولايتى دير وسوات هو أن ولاية دير فقيرة أما ولاية سوات فغنية .

فالأرض الحصبة الواقعة فى وادى سوات ليس لها مئيل فى حوض نهر بانجكوراً بأجمعه . وفى هذا الوادى الشهير بخصبه يحصد الأهالى غلتين فى العام الواحد إحداها ثلة القمح فى يونيو والثانية غلة الأرز فى أكتوبر . ويوجد فى ولاية دير حقول للأرز أيضاً ولكنها قليلة جداً ومساحتها صغيرة . وترجع ثروة ولاية سوات إلى أنها تستغل مواردها الطبيعية ، فالأخشاب التى تحصل عليها من كوهستان لا تقل أهمية كمورد من موارد الثروة عن المحاصيل الزراعية التى ينتجها وادى سوات ، وولاية دير هى الأخرى لها منطقة جبلية ( كوهستان ) غنية بالأخشاب ولكنها لم تستثمر حتى اليوم ومن هنا يمكن القول بأن سوات أقدر على الحياة من دير فضلاً عن أنها أعظم منها ثروة . لقد سررنا هنا كثيراً من المزايا التى تختص بها ولاية سوات دون جارتها دير ، فماذا يمكن أن نقول عن دير ؟ .

ان شخصية حاكم دير الحالى ( لقد تمت كتابة هذا المؤلف قبل تغير حاكم دير فى أكتوبر ١٩٦٠ ) عنصر هام لا يمكن إغفاله .

فهو يحكم حكماً مطلقاً ويوقع بخصومه ومعارضة أشد أنواع الإنتقام وهو حريص كل الحرص ويراقب كل شئ وكل حركة لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة فى بلاده . وهو ليس فى حاجة إلى منع إصدار أمر أو تصريح فتكفى منه إشارة أو إيماء ، بسيطه يدرك أتباعه ما يريد وهناك الطاعة المطلقة والتففيذ العاجل ،

وهه الأول والأخير هو ان تطاع أوامرہ أطاعة مطلقة . أنه لا يفكر الا فى فرض سلطته ونفوذه وهو يسير إلى هدفه فى وضوح وجلاء فلا التواء ولا استرضاء . أنه لا يرضى عن مستحدثات العصر الحاضر ويرى أنها غرور فى غرور . وإذا حلت نفسيته وجدتها مزيجاً من الإستهانة والشك وعدم الثقة فى الناس ، بل وفى الحياة خارج دائرة الجبال التى يعيش فيها هو وشعبه أنه يرى فى هذا العالم الخارجى الخطر كل الخطر وقد يفضل جاره وإلى سوات التضحية بالتجديد فى سبيل الإحتفاظ بالسلطة لو اتيح له ذلك . ولكنه يدرك تمام الإدراك أن هذه مشكلة معقدة يجب عليه أن يتجنبها . وهو هنا يستعيد فى ذاكرته ما حدث لأحد ملاك أوربا المستيرين فى القرن الثامن عشر . فقد كان فى أوروبا قبل عصر الثورات كثير من الإمارات المستقلة الصغيرة التى فى حجم سوات وكانت تحكم حكماً اتوقراطياً لصالح الشعب ولكن الحكومات الحديثة ابتلعت هذه الإمارات وادمجتها فى حكومات كبرى وبذلك ذهبت شخية الحاكم وشعبه الصغير .

كذلك إذا انتقلت إلى « أمين سر الدولة » تجده هو الآخر يفكر بعقلية سياسى أوربى فى القرن الثامن عشر . فتمد سنوات قبل أن يكون حاكم الولاية قد أتم إنشاء دولته الصغيرة ، وقد أمين سر الدولة الحالى على البلاد بناء على دعوة الحاكم ليشغل مؤدباً للوالى الحالى لفترة ثلاثة أشهر . وكان هذا الامين أجنبياً عن البلاد فهو من أبناء البنجاب من بلدة جوجرانوالا وقد قبل هذا البنجابى منصبه كمؤدب لعله أن قضاء ثلاثة أشهر بين الباتانيين من قبيلة يوسف زاد خبرة جديدة شيقة . ولكن تبين فيما بعد أنها كانت طويلة قاسية ، فبدلاً من أن يقيم بين اليانان ثلاثة أشهر أقام بينهم بقية حياته دون وسيلة للخلاص . فعندما انتهت الشهور الثلاثة طلب منه الحاكم أن يبقى بجانبه ليكون مستشاره الخاص .

لم تكن الولاية في ذلك الوقت تبشر بمستقبل زاهر ولكن البنجابي سلم بالأمر الواقع وربط مصيره بمصير هذا السياسي اليائاني . ومنذ ذلك اليوم وهو يعمل بصفة دائمة في سوات : فقام أولا بخدمة الحاكم الوالي مؤسس حكومة سوات وثانيا بخدمة الوالي الحالي . ومنصبه يقتضى بقاءه في سوات كل الوقت ، فالفرصة الوحيدة التي استطاع فيها أن يغادر البلد لم تزد عن ١٤ يوما خلال حياته الطويلة في سوات . وكان اقصى رحلة قام بها إلى باكستان الغربية . وهو وإن ظل حبس سوات طول حياته فقد كانت له يد كبرى في إدخال المستحدثات العصرية إلى البلاد . واستطاع بمجده ومثابرته أن ينشئ حكومة منظمة على انقاض الفوضى اليائانية .

ولكن شخصية مؤسس سوات الحديثة تغطي على كل شخصية أخرى في إقليم دير وسوات . أن هذا الرجل يشبه جاره نواب ( أمير ) دير في أنه ينحدر من أسرة دينية ، فهو حفيد اخوند ( الزعيم الديني ) إقليم سوات . ومن المشاهد أن طائفة الاسماعيلية بين اليائانيين لها أوضاعها الخاصة التي تتيح لحمة الألقاب الوراثية من رجال الدين أن يستعوضوا عن المقدرة العسكرية بمركزهم الديني في الحصول على مركز سياسي . ذلك أن القوى العسكرية المتعادلة في هذه المجتمعات قد تجمع كلها على اختيار أحد رجال الدين ليكون حكما بينها فيما يجد من خلاف . وإذا ما احتدم الأمر بحيث أصبح المخرج الوحيد من خلاف مستحکم هو اختيار طرف ثالث لتولى الزعامة فهنا فرصة رجل الدين الذي اختاره الطرفان العسكريان حكما بينهما . فهو في نظر الطرفين أقل خطرا من تولى أحدهما السلطة .

هذه هي الطريقة التي استطاع بها منشئ حكومة سوات أن يصل إلى منصب الحكيم . وهذه هي نفس الطريقة التي استطاع بها أحمد شاه عبدلي منشئ الامبراطورية الياشتونية أن يصل إلى الحكم قبل ذلك بقرن ونصف .

أن الدعوة التي وجهت لحفيد الأخوند ( الزعيم الديني ) هي تقليد تاريخي يائاني . وهي أمر لا غرابة فيه . ولكن وجه الغرابة هو كيف ورد على خاطر

هذا الرجل الذى نشأ فى مجتمع ديمقراطية التقاليد بالفوضى أن يستفيد من تلك السلطة الضئيلة التى منحت له ويؤسس ملكاً له ولترثته من بعده ؟ وكيف عزله أن يدرك وجود ما يسمى بالحكومات العصرية ؟ وكيف تحقق لديه أخيراً أن تاريخ العالم بلغ مرحلة أصبح معها قيام حكومة عصرية أمراً ضرورياً فى حياة الباختون ؟ أن كل ما كان يتطلبه منه أهل عشيرته من أولئك الباتانيين الصعبى المراس الأقوياء الشكيمة هو أن يجعل منهم وحدة عسكرية وسياسية تستطيع الوقوف أمام عدوان نواب ( أمير ) دير .

ولكن مؤسس حكومة سوات كان يتطلع الى ما وراء ذلك . ولم يقتصر الأمر أنه ألقى نظرة على المستقبل أبعد من تلك التى ارتآها أهل عشيرته ولكنه أعد العدة واتخذ الخطوات المتعاقبة اللازمة لتحقيق هدفه دون أن يثير رية أهل العشيرة التى كان يسمى إلى اتخاذهم رعايا له . أن الفكرة كلها تبلورت فى رأس رجل واحد فقط ولم يكن لهذا الرجل من يثق به غير أمين سر الدولة البنجاني الذى وقد على البلاد أخيراً ليكون مؤدباً لابنه .

أن تكوين الفكرة وأعداد الحطة اللازمة لتنفيذها من الأمور التى تحتاج إلى عبقرية سياسية خاصة . ولقد تجاسرت فسأت حاكم سوات السابق كيف استطاع أن يحقق هدفه وكان رده المقتضب الكبير الدلالة كلمة واحدة هى ، الصبر ! .

أن هذا الحاكم لم يقم دعائم حكومة عصرية وسط الفوضى السياسية السائدة فقط ولكنه حقق ما هو أعظم من ذلك بكثير . ولما أدى مهمته خير أداء وحقق أهدافه تنازل عن الملك وكأنه فى هذا يشبه الأباطور الروماني وقلد يانوس على الرغم من أنه لم يقرأ عنه ولم يسمع . به . ولما خلا باله من مشاغل الحكم عكف على مهمته وهى رعاية الشعائر الدينية . وكان أول عمل قام به فى هذا السبيل هو صوم رمضان طوال العام بأكمله . وثانيها العكوف على تلاوة القرآن . لقد نصحه الأطباء أخيراً بأن يقلل من الصيام ، أما تلاوة القرآن فلا يزال منابرأ عليها .

ترى ما الذى يخاطره أثناء تلاوة القرآن ؟ لقد علمنا أن الصبر كان سلاحه الماضى فى بناء دلكه الصغيرة . ولكن هذا الصبر اقترن بالقوة وعدم المبالاة . إذا ما أراد أن يزيل المعارضين من طريقة حتى لا يكون فى هذا الطريق من يهدد بنكسه . وربما أنه ارتكب كثيراً من الخطايا أثناء تعبيد الطريق لإقامة حكومته الجديدة .

فهل هو الآن فى عزله يكفر عن تلك الخطايا التى ارتكبها فيما مضى والتى تبين له وهو فى هذا المكوف أنها تتعارض مع تعاليم الإسلام ، ولكن أى نوع من الخطايا ارتكب ؟ أغلب الظن أنها خطيئة قتل النفس ، وإنه أزهق أرواح عدد كبير من اليانانيين فى سبيل تحقيق هدفه .

ولا شك أن إقامة حكومة سوات الجديدة قد بعثت السيادة والخير فى جميع أنحاء ملكه الصغير ، كما بعثت السكينة والهدوء فى نفوس أولئك اليانان اليوسف زاي الذين أصبحوا رعاياه ، فلقد أتقدهم من تلك الفوضى التى تمتد جذورها عميقة فى سجل التاريخ البعيد . وهياً لهم الرخاء والاستقرار والأخذ بأسباب الحياة العصرية التى تتلاطم أمواجها على جوانب الجبل وأسوار الوادى الخصيب .

أما ما كان فى حياة هذا السياسى العظيم من خير وشر فانا نترك تقديره إلى خالقه . ولعل الله يغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر وهو شيخ مسن يشغل البقية الباقية من حياته بتلاوة القرآن فى خلوة .

إذا لم يوجد الجلبير فلن يوجد الأرز . أن حقول الأرز في وادي حوارم تروى من الثلوج الدائبة السائلة من سافدكوه ( الجبل الأبيض ) لقد رأيت قبة هذا الجبل منذ بضعة أيام وهي بيضاء من كثرة ما تراكم عليها من الثلج كنت في ذلك الوقت قادما من كابل إلى بشاور عن طريق جلال آباد . والودى عند شال جذب مقبض للنفس ولكن ما أن توغل فيه حتى تستشعر منه الطبيعة اللينة والمطاف . وهنا يستخدم الانسان مهارته وجهوده في تسخير هذه الطبيعة ذلك أن الإنسان يقسم سفوح المرتفات إلى ( مصاطب ) لزراعة الأرز والذرة والقمح ويذكرني نظام المصاطب هنا بما فيه من دقة وجمال بما شهدته في بالي ، ولكن عناية أهالي باختون بالزراعة أمر يثير كل إعجاب . فشعب بالي مسلم وتستشعر روح السلام هذه حتى في الحقول وما يحيط بها من مناظر طبيعية ، أما البختينيون فقد كانوا أهل حرب منذ القدم ولطالما اشتهر عنهم إنفاقهم المال بسخاء في شراء الأسلحة والدخول في معارك دموية أخذوا بالتأثر . ولكن هذه المصاطب التي هيأوها للزراعة على سفوح الجبال في وادي حوارم تظهر جانبا آخر من جوانب طبيعتهم — ذلك هو الجانب المسلم الإنشائي الذي لعبت الحكومة الباكستانية دوراً كبيراً ما هراً في إثارته .

لقد قدمت على باراشينار في آخر يوم من أيام العرض الزراعي السنوي قد يذكر منظر العرض بأنك في ضواحي مدينة صغيرة من المدن الانجليزية القائمة في إقليم البحيرات وذلك باستثناء واحد فقط مهوان جيل سافدكوه الذي يشرف على الوادي اعلى بكثير من الجبال الانجليزية المحيطة بإقليم البحيرات كان المتسابقون على ظهور الخيل والحمير على جانب كبير من الحماسة والفتوة ، كما كانت وجوه الفائزين تطفح بشراً ولطفاً وهم يستعرضون مطاياهم اما المتفرجين .

وبجانب ذلك كان المعارضون يقدمون لجمهور النظارة خير ما انتجوا من جمال وغنم وممر ، وخاصة المساعز البينجاني المشهور الضخم الجسم . أنه عمل عظيم ذلك الذي قامت به الحكومة الباكستانية انه متفلس لزعة الحرب التي تملك علي الباثاني نفسه ومشاعره . حقاً لقد كانت فكرة انشاء هذا المعرض قطعة فريدة من فن الحكمة السياسية . فقد حولت حب القتال إلى مناقشة في الخير والإنتاج . ولعل أثر مثل هذا الوعي السياسي يمتد فيشمل كل جزء من أجزاء العالم .

أن الحكومة الباكستانية تحاول جاهدة أن تحول ما في ذهن الباثاني من حب المقاتلة والأخذ بالتأثر إلى كفاح من أجل تحسين مستوى إنتاجه الزراعي وهذا هو ما يعبر عنه علماء النفس بعملية « الاستعلاء » أو التسامي بالزعات الإنسانية السيئة ، وتحويها إلى نزعات خيرة .

ان الباثانيين الأرثليونيون كيف ينتجون سلالات أحسن من الأرز والتفاح وهم يتعلمون تقدير أهمية التخصبات الزراعية ، والحكومة في هذا السبيل توزع عليهم التخصبات بأثمان زهيدة . وهم يتعلمون كيف ينقلون الماء إلى أرض جدداء أصبحت بفضل الماء مزارع خضراء يانعة وهكذا تجد أن نظرة القبائل إلى الحياة تتغير تغيراً وإن كان تدريجياً إلا أنه يسير قدماً إلى غايته .

بودى لو أن الثارات بين الأمم يخدم أوارها كما يخدم أوار الثارات بين القبائل والعسائر !

أن سافدكوه يتلأأ في ضوء الشمس ومن تحته بساط ذهبي من حقول القمح . أن القمح في أعلى الوادي لا يزال قائماً يتعرج مع هبات النسيم أما في أسفله فقد تم حصادها ووضعها في الأجران .

وهناك في جانب آخر مزارع الأرز وقد عطاها الماء . أنها تلمع في ضوء الشمس كمرآة فضية صافية .

وفي وادي كوارم تآخى الإنسان والطبيعة فصنعا عالماً جديلاً . أن كل ما حولنا هنا يفيض خيراً وبركة - لولا تلك الحصوية العابسة المتجهمة التي تبيت في النفس انقباضاً وكآبة . أنها شاهد غليظ القاب علي ذلك الجانب المظلم من الطبيعة الإنسانية .

## ٤٠ — رازمك وما بعدها

لقد شاهدت اليوم شيئاً يتمنى العالم الأثرى لو أتفق ثروة في سبيل مشاهدته .  
لقد شاهدت السور الروماني ، لا بحام ١٩٦٠ ، ولكن كما كان فن القرن  
الخامس الميلادي ، وبعد إن جلا عنه الرومان بثلاثة عشر عاماً فقط .

تصور نفسك مواطناً في الأمبراطورية الرومانية عام ٤٢٥ ميلادية ، وتصور  
كذلك أنت الشاعر الأفريقي سينيقيوس القورينائي ، أو إنك المؤرخ الأغريقي  
بريسكوس الذي أرسله الأمبراطور بتودوسيوس سفيراً له في بلاط أتيللا . أكل  
الصورة الذهبية بجولة تقوم بها في أنحاء الأمبراطورية ، وخاصة في تلك البقاع  
التي تخلت عنها الأمبراطورية وأنت على قيد الحياة . لقد أقيمت عصا الترحال  
في اليتامولا (جزر شتلند وكان يظن الرومان أنها أخرى الدنيا من جهة الشمال) .

ان الحكومة الرومانية في بريطانيا لا تزال مسيطرة على طرفي سور هادريان  
(سور هادريان هو سلسلة الخصومة التي أقامها الأمبراطور الروماني في هادريان  
لصد غارات البرابرة) ، ولكنها جلت عن القسم الأوسط من هذا السور وسلمته  
إلى فرق من الحرس الأهلي — ليقوموا بحماية الحدود الأمبراطورية .

بعد أن تستحضر هذه الصورة الذهبية تخيل أن كل ذلك حدث منذ ثلاث  
عشر عاماً فقط ، أي أن الحصون الرومانية وثكنات الحرس الأهلي لا تزال  
قائمة كما هي ، وكل ما هنالك أن جانباً من السور قد انهار هنا ، أو أن سقفاً  
سقط هناك أو ان بعض النوافذ والبوابات قد تحطمت .

لقد انتقلت اليوم ١٥ يونيو ١٩٦٠ من حضرة ميران شاه إلى رزاماك وعدت  
مرة ثانية بطريق رازمك الشهير . أن باكستان لا تزال تملك في حوزتها حصن  
ميران شاه الذي بناه الانجليز في شمال شرق رازمك . وفي جنوب غرب رازمك

لا تزال تملك حصن وانا الذى بناء الانجليز أيضاً ، ولكن فى عام ١٩٤٧ عندما أعلن الاستقلال وبدأ التقسيم كان من أول الأعمال التى قامت بها حكومة باكستان الناشئة إخلاء سلسلة الحصون التى أقامها الجيش البريطانى المسمى على امتداد المرتفعات ، وهى دامل ودوساللى وجورد آى ورازانى ورازمك . وفى طريقنا إلى زارماك مررنا بخرائب هذه الحصون جميعها تصور أن الدرشوت البريطانية قد انتقلت من جزيرتنا إلى باكستان ولكنها لا تزال تحتفظ بطابعها البريطانى لأنها تقوم على هضبة ارتفاعها سبعة آلاف قدم تحملها سلاسل جبلية ارتفاعها عشرة آلاف قدم . وتصور أيضاً أن الدرشوت البريطانية هذه قد دمرت وأصبحت قاعاً صفصفاً ، أن الفناء لم يدب إليها ديباً كاملاً لأن بناءها متين . إن الكنيسة والسبنا والسوق والورش وثكنات الجند كلها فى حالة جيدة .

لقد كانت بريطانيا قبل الجلاء عن شبه القارة الهندية الباكستانية تحتفظ بقوى كبيرة فى رازماك وتقل هذه القوة إلى مكان منزل قصى مثل رازماك وتزويدها بالموث والدخائر . كان يكلف بريطانيا نفقات باهظة وخاصة انها تقع فى بلاد معادية وهى بذلك كأنها فى حالة طوارئ دائمة . ولما أعلن الاستقلال وما اقترن به من تقسيم شبه القارة إلى الهند وباكستان وبدأت الحرب فى كشمير بين الهند وباكستان وجدت باكستان نفسها عاجزة عن الاحتفاظ بهذه السلسلة الطويلة من الحصون والقلاع بالطريقة التى كانت بريطانيا تحتفظ بها والتى كانت تكلفها نفقات باهظة . وقد واجهت هذه المشكلة بحل معقول وهو إخلاء الحصون البعيدة والمراكز العسكرية الأمامية ولكن الضرورات المالية والالتزامات العسكرية التى فرضت على باكستان بسبب وجود خط حدود طويل بينها وبين الهند لم يكونا السبب الوحيد فى إخلاء باكستان لبعض خطوط التحصينات الواقعة على حدودها الشمالية الغربية . ان هذان يعتبران من الوسائل السلبية ولكن هناك سبب إيجابى لهذا الانسحاب ، ذلك ان باكستان بدأت توجه سياستها وجهة جديدة انها لم تعد تتناول مشكلة الحدود على أنها مشكلة عسكرية فى المقام الأول ونتيجة لذلك فإن القبائل الضاربة فى هذه المناطق والتى كانت تقف من القوات البريطانية موقف التحدى لم تعد تتبع هذا المسلك القديم .

وبدلاً من أن تظل مدمرة للمدينة انقلبت إلى نصير لهذه المدينة ومعتق لها .  
هكذا نجد باكستان باتباع هذه السياسة الإنشائية قد استفادت فائدة مزدوجة ، ما كانت حكومة الهند البريطانية لتحصل عليها . ولكن كيف عم ذلك ؟ في عام ١٩٤٧ عندما تسلمت حكومة باكستان الناشئة مسئولية حماية الحدود الشمالية الغربية ، كانت القبائل الضاربة في هذه المناطق على اتصال بالمدينة لمدة تبلغ حوالي مائة عام . حقيقة أن هذا الاتصال كان يتخذ قالباً عدوانياً ولكنه على أى حال لم يخل من فائدة ، ولذلك فإن عيون هذه القبائل في عام ١ٹ٤٧ كانت قد بدأت تفتح على العالم الخارجي بما فيه من تقدم وعمران ، وأفكار جديدة . وكان هذا الاتجاه الفكري الجديد لقبائل الحدود فرجة ضيقة ولكنها هيأت للسلطات الباكستانية طريقاً للتسلل أخذت توسعه بالتدريج . ولاننى أن الباكستانيين بخلاف البريطانيين — إخوان في الدين لهذه القبائل ، وإذا قلن تجد بين القبائل ناسكا ( فقير ) يثير القلاقل ضد الباكستان وفضلا عن ذلك فإن الباكستانيين قد أثبتوا تشبههم بعفديتهم الإسلامية عندما أصرروا على إنشاء حكومة إسلامية خاصة بهم فانسلخوا عن حكومة الهند المستقلة وانتقلوا بأموالهم وأولادهم ومتاعهم إلى بلد جديد ليعيشوا تحت راية الإسلام .

أن الإخوة الدينية مهدت الطريق أمام الباكستانيين للاتصال بالباكستانيين دون إثارة تلك الشبهات التي كان يثيرها في الماضي مجرد ظهور انجليزى بين هؤلاء القوم الشديدى التعصب لدينهم ، ذلك أنهم يعتقدون أن الانجليزى كافرواذا فهو ليس أهلا للثقة حتى ولو كان يقدم لهم ما انتجته المدينة الحديثة من منافع وخيرات .  
وليس معنى هذا أن الحكومة الباكستانية قد حلت مشاكل الحدود نهائياً فلا تزال باكستان تحتفظ بقوة عسكرية كبيرة في مناطق الحدود ولو أن هذه لا تقاس شيئاً كما كانت عليه الحال تحت الحكم البريطانى . ولا تزال باكستان تتخذ كل الاحتياطات العسكرية الدقيقة ، فالحصون والمراكز العسكرية التي بها لا تزال تحت حراسة قوية ، والطرق لا تزال أيضاً تحت حراسة قوية من الطائرات التي تطير على ارتفاع منخفض أو من صفوف من اللوريات تحمل فرق الكشافة للمحافظة على الأمن في الطريق . حقيقة أن القتال بين القبائل قد هبطت

نسبته إلى حد كبير والحكومة الباكستانية تقف منه موقفاً غاية في الحزم كذلك تقابل هذه الحكومة أى هجوم على قواتها أو منشأتها العسكرية بمتى الشدة والعنف مستخدمة في ذلك أحدث الأسلحة .

ولكن رغم كل هذه الإجراءات العسكرية فالجانب العسكري من مشكلة الحدود ليس في المقام الأول . أن الحكومة الباكستانية تتخذ حرس الحدود من بين أبناء القبائل أنفسهم وهي وسيلة لتشغيل العاطلين من هؤلاء الباكستانيين وتعليمهم وقد أتت هذه السياسة بأحسن الثمرات .

أن باكستان تتبع سياسة تقدمية في منطقة الحدود ، وأداة هذه السياسة ليست هي الأسلحة الحربية ولكنها مخازن الأدوية والصيدليات والمستشفيات والمدارس والساحات الرياضية وفوق ذلك كله التنمية الاقتصادية .

أن هذا السلاح الأخير هو أقوى الأسلحة لأنه يتيح الفرصة أمام رجال القبائل كي يجدوا وسائل جديدة للعيش غير شن الغارات والنهب والسلب . عندما تقوم برحلة في مناطق القبائل على الجانب الباكستاني من خط ( يوراندا تلاحظ أن أشد القبائل نزوعاً للحرب تلك التي تعيش في أفقر المناطق على حين أن المناطق الغنية بخيراتها تضم قبائل ليست على درجة من الأقدام والبسالة تماثل ما لدى أولئك المحاربين الجبابرة . مثال ذلك أن قبائل الدورالين عريكة من قبائل الوزيري ، والمعروف أن الدور يملكون قطاعاً حصيماً في أعلي وادي طوشي . كوك تجد البنوشي ابن عريكة من الدور والمعروف أن هؤلاء البنوشي يملكون واحة بنو الوفيرة الخيرات والتي تفوق أزخر أعالي وادي طوش في خصوبتها واتساعها .

ولنا هنا أن نسأل ما الذي حدا بالقبائل الوزيري إلى أن تترك جاراتها الهيابة تملك الأرض الحصبة وتعيش عليها في أمان ؟ .

ولماذا قبلت الوزيري أن تظل حبيسة فوق صخورها الجرداء ؟ .

كان الأجدر بنا أن نضع السؤال علي الوجه الآتي .

لماذا كانت قبائل الوزيري اليوم أصعب مراساً وأشد نزوعاً إلى الحرب من قبائل الدور ؟ .

أن وضع السؤال في هذه الصيغة أصبح ، لأن القبيلتين تتحدران من أصل واحد وهو الباختون ، ولقد كانتا في البداية تملكان قدراً متساوياً من البسالة في الحرب ، يوم أن عبرتا خط تقسيم المياه بين حوض نهر هلموند ونهر السند كي تها في نفسيهما وطناً جديداً في حوض السند .

أن الفوارق القائمة بينهما حالياً في قوة البأس مرجعها طبيعة الأرض التي عاشت عليها كل من القبيلتين منذ أن عبرتا الحدود وبدأتا الاستيطان في حوض السند . فالأرض التي يعيش عليها الدور هيأت لهم سبل الحياة بكدهم وجهدهم وهذا العمل المستمر وإن كان شاقاً إلا أنه جاء عن طريق المسالمة ، وشغل وقت الدورى بما لا يدع أمامه فرصة ولا حافزاً لحفز غمار المعارك .

أما ابن عمه الوزيرى فقد كان نصيبه قليلاً بالأرض التي استوطنها في المناطق الجبلية الجرداء فهما تعب وكداً فإن الأرض لن تغل ما يقيم أوده ولذلك فلم يجد أمامه وسيلة للعيش إلا الغارة على جيرانه ونهب خيراتهم ولعل الحكومة الباكستانية قد عرفت منطق الداء وقدمت خير الدواء .

وإذا كان حقاً ما يقال من أن طباع القبائل نتيجة لطبيعة الأرض التي تعيش عليها ، فأنا أتوقع تغيراً كلياً في طباع هؤلاء الجبلين وفي نظرتهم إلى الحياة وفي أطعامهم وأماهم وخاصة عندما يخادرون معاقلم الجبلية ويهبطون إلى السهل .

عندما وصلت ميران شاه شاهدت مباراة في كرة القدم بين فريق كشافة الطرق والفريق المحلي . لقد اتسمت المباراة بالمهارة والنشاط والروح الطيبة من الجانبين ، واعتقد أن كل مرة يتبارى فيها الطرفان في كرة القدم سوف تهبط أمامها مبارياتهما في محاولة اصطياد كل منهما للآخر . ويتنزه الكشافة فرص المباريات لدعوة أفراد القبيلة لشرب الشاي وبطريقة ( غير متعمدة ) يطلعونهم على ما لديهم من أحدث الأسلحة .

أن رجال القبائل متهافتون على تعليم أبنائهم وقد وصل عدد المدارس . الابتدائية في مناطق الحدود في الخمسة عشر طما الأخيرة إلى أربعة أضعاف

ما كان عليه من قبل . ذلك أن تسأل الأستاذ هاشم الذي كان مشرفاً على التعليم في مناطق الحدود لمدة سنوات وأصبح اليوم مسجلاً لجامعة بشار . كذلك زاد عدد المدارس المتوسطة والثانوية ، وتتخذ الآن الوسائل اللازمة لبدء تعليم البنات .

ان موضع تحرير المرأة لا يزال إحدى المسائل الشائكة التي كثر حولها الجدل والخلاف في الجانب الباكستاني من الحدود الباكستانية الأفغانية عندما تقابل « الملك » والمتصود بالملك هنا العمدة ، أو المختار ، يبدأ الحديث منك في هذا الموضوع بفهامك أن هذه النزعة لتحرير المرأة تخالف تعليم الإسلام وأنها قد فرضت فرضاً على المرأة الأفغانية النعمة تحت تأثير ضغط الشيوعيين الروس الكفرة ، على حكومة ملكية أفغانية ضلت طرقها ، وهي في نفس الوقت لا تمثل الشعب . قد يكون من الحق الاعتراف بأن حركة التجديد في أفغانستان اليوم تسير على الأسس التي سارت عليها حكومة تركيا منذ أوائل العقد الثالث من القرن العشرين . أن هذا التجديد يتم إلى حد ما عن طريق الأكرام ، ذلك لاقناع الحكومة بأن التجديد هو السبيل الوحيد لانقاذ البلاد من التروى في الهاوية . ومع ذلك فلو أن « الملك » الباكستاني كلف نفسه مشقة الانتقال إلى كابل لتأكد بنفسه كم أظهرت المرأة الأفغانية اعتبارها وارتياحها لالقاء الحجاب جانباً ، فإذا ما ذهب ذلك الرجل القادم من المناطق الجبلية إلى كراتشي أو حتى لا هور لاصابة صدمة بسبب ما يلاقيه من تحرير . فالنساء المنحدرات في كابل لا يزال عددن محدوداً أما في كراتشي فهن يحصن بالآلاف .

وإذا ما أطلع هذا « الملك » القادم من الجبال عن حياة الطبقة المستنيرة الباكستانية في كراتشي لادراك خطأ الكبير في تصويره أنه بالاندماج في باكستان قد أصبح مواطناً في دولة إسلامية تراعى التقاليد الدينية مثلماً تراعيها دولة كالعربية السعودية .

لقد سألت لقيفاً من هؤلاء « الملوك » في حصن سانديمان عما يراه نساؤهم

في هذا الموقف . «أجابوا في صرامة بأن نساءهم لا يفكرون في مثل هذا الأمر ولا يهمهن أن يفكرن فيه بتاتاً . وأضافوا قائلين :

ان نساءنا لا شأن لهن بمستقبلهم . فتحن الذين نبت في الأمر ونعد له عدته « ورغم ذلك فقد علمت أن بعض هؤلاء « الملوك » يرسلون بناتهم إلى المدرسة الثانوية في حصن سانديمان . كذلك إذا أضيقت عليهم الخناق أخبروك في صراحة أن تحرر المرأة أمر لا بد منه أن عاجلاً أو آجلاً . ويعززون موقفهم بالادعاء أن هذا الأمر يجب أن يترك لسير الزمان .

بعد ذلك يأتى دعيت إلى مأدبة في شامان وهى أقمى مركز عسكرى باكستاني من مراكز الحدود على الطريق بين كوتا وتندهاز ، وكان من بين الحاضرين قائد كتيبة البنجاب وهو نجل لمجسود خان وقد أصبح جندياً عسرياً . كانت بجانبه ابنته التى تبلغ من العمر ستة أعوام ، وكانت الطفلة فى ملابس أجنبية وعلى عيناها نظارة أنيق .

ولقد قالت لى الفتاة أنها تود أن تصبح طبيبة . ومهما اعترض « الملوك » أو مهما اعترض أبوها فلا بد وأن تصبح يوماً ما امرأة عصرية . ويمكن القول ان وزير ستان سوف يطرأ عليها فى جيلين من المتغير ما طرأ على عشائر الهايلاندر فى اسكتلندة ابتداء من ١٧٤٥ .

ان الذى أحدث التغير فى القبائل الجبلية الاسكتلندية ليست هى مجاوز دوق كبرلانند ولا الطرق التى شقها الجنرال وبد ، وإنما هو بدء برامج التنمية الاقتصادية فى الزراعة والصناعة . وهذه هى نفس البداية التى ظهرت على حياة القبائل لجبلية فى باكستان اليوم .

ان الحكومة الباكستانية تشجع الوزيرى فى هضبة رازمان على استثمار مواردهم من البطاطس والصوف إلى أقصي حدة وأمام البائنان فرجة للحصول على إقطاعات من الأراضى الخصيبة فى المناطق التى وصلتها مياه الرى حديثاً فى إقليم السند .

وكذلك أخذت قبائل المجسود تهجر وزير ستان فى جماعات كبيرة إلى منطقة تانك فى سفوح الجبال .

لقد ترك رجال الأعمال الهنود فراغاً في منطقة تانك عندما رحلوا عنها عام ١٩٤٧ ، ولكن قبائل المحسود سدت هذا الفراغ بمجدارة وحماسة . أما قبائل الوزيرى فقد بدأت تحصل على أراضى خصبة تروىها مياه نهر كورام . والباثانيون فى الجانب الباكستانى قد تغيرت أساليب حياتهم تغيراً كبيراً ، وكلما تغير الوضع الاقتصادى تغيرت معه النظرة إلى الحياة . أن المدينة الباكستانية تزحف زحفاً أكيداً على مناطق القبائل .

والذى الذى يدعو إلى الاطمئنان هنا أن هذا القبائل لا تنفر من المدينة المصرية بل تقبل عليها ، كذلك تدرك أن عيشها لن يطيب إلا بارتباطها بالقطن الباكستانى ، وهذا يجعلها تهم آذانها عن تلك الدعاية التى تطوقها كل آونة وتحرض قبائل الباختون المقيمة فى باكستان على الانضمام إلى أبناء عنصرهم فى الأفغانى لتكوين ما يطلقون عليه اسم باختونستان .

ولو لم يكن أمام باكستان من تناقشه الحساب غير جارتها أفغانستان ، إذا لتبأننا فى كثير من الثقة بأن عنائى الباثان المقيمين فى الجانب الباكستانى من خط ديورانند سوف يندمجون أخيراً فى الوطن الباكستانى ومثلهم فى ذلك مثل عشائى الهابلاندر فى مرتفعات اسكتلندة التى اندمجت فى بريطانيا أن عملية الأدماج عملية اختيارية ، وهى ليست سياسة الحكومة الباكستانية فقط ولكنها أيضاً تلقى قبولا من رجال القبائل الذين تغيرت نظرتهم إلى الحياة ولكن هناك عامل مجهول فى الموقف يبعث القلق فى نفوس المسئولين الباكستانيين ونفوس رجال القبائل على السواء .

## ٤١ - معاطف من فرو الأغنام

(بوسيني) وماذر

ان الحافة الشرقية الوعرة لمضبة إيران وهي التي تتحدر انحداراً شديداً نحو حصن السند منطقة منطرفة الأجواء ، ولن تجد هناك ذلك الانتقال التدريجي الذي يخفف من حدة الجوى المتطرف وأثره العنيف على الأجسام الأدمية . فانت في أعلى المضبة ترتجف من شدة البرد ولا يقيك من هذا البرد الفارس إلا أن تلتف بمعطف الغنم ، وما أن تتحدر إلى المنخفضات حتي تنصب عرقاً فتخلع ما عليك من ملابس وتبقى في مئزر من القطن يغطي الحفرين قط ، لن تجد في الطبقة مثل هذا التطرف الجري الشديد القسوة في اى مكان آخر ، ولكن تجد مثيله فيما اصطنعه الإنسان .

أن هذه المنطقة لا مثيل لها إلا الحمام التركي ، فانت هنا في حمام تركي طبيعي على نطاق واسع : الغرفة الفارسة البرد هي الحافة العليا لمضبة إيران على ارتفاع سبعة آلاف قدم فما فوقها ، تنتقل منها إلى حمام البخار ذى الحرارة العالية عندما يباغ المنحدر ثلاثة آلاف قدم فما دونها . أما المنطقة الواقعة بين المنطقة العليا الباردة والمنطقة السفلى الحارة فهي تتدرج في الاعتدال شمالاً وجنوباً تبعاً للقرب من البرودة والحرارة . ومن الممكن أن تحس هذا الاعتدال إذا انتقلت من البرد الفارس إلى الحر اللافح في أقل من لمح البصر ان إحساسك عند هذا الانتقال المفاجئ يذكرك بما ينتاب الإنسان من شعور عنيف بتبادل الحر والبرد في مدينة مثل واشنطن أو نيويورك في فصل الصيف القائلظ ، إذا ما انتقل بين دور الأعمال أو مكاتب الحكومة المكيفة الهواء والشوارع الملتبة من شدة حرارة الشمس .

عند ما كنت في دير استمتع بطقس معتدل نادر الحدوث في مثل تلك

المروض العليا أثار إعجابي منظر المندوب السياسي الباكستاني في تشترال وزميله مدير مكتب الصحة .

ففي سويغات قليلة أخذنا يتنقلان بين المناطق المغطاة بالثلوج فوق عمر لواري والمناطق الأخرى التي تقاسى من موجة حر عنيفة حول بشاور وأنا شخصياً ألقيت نفسي وسط هذه الموجة الحرارية منذ أيام ، فقررت منها إلى أعلى وادى كورام .  
وتقع مدينة باراشينار على السفح الجنوبي للجبل الأبيض ولقد كان هذا الجبل في منتصف يونيو مكسوا بطبقة ثلجية حتى سفوحه الجنوبية المواجهة لمنطقة الحرارة العظمى التي تسود الإقليم في هذه الفترة من السنة . وفي باراشينار استمتعت بجو بارد مطير ذكرني برذاذ انجلترا الرطب . ولكن عندما هبطنا إلى أسفل الوادى في اليوم التالي ، ذكرتنا حقول الأرز بأنها انتقلنا من جو بريطانيه البارد إلى جو جاوه الحار الرطب . لقد كان الجو في نال حاراً محتبس الهواء ، ولما ان عبرنا نهر كورام ودخلنا في إقليم وزير ستان الباس المتجههم كانت أشعة الشمس تنعكس من الصخور العارية كأنها رشاش قابل دائبة انطلقت من فوهة مدفع .

هل تتجه إلى ميران شاه ؟ إن هذا يتوقف على عمق نهر كايكو مخاضة سينوام . لقد كانت هنا يوماً ما قنطرة ولكن قبل الأزيى حطمتها وهم الآن يتاسون سوء فعلتهم الطائشة باضطرارهم إلى الخوض في مياه النهر ذهاباً وحيئة كلما اضطرتهم ظروف الحياة إلى التردد على سوق مدينة نال .

ولم تكن خشيتنا من حرارة الجو بأشد من خوفنا من فيضان نهر كايكوود وما يتبع ذلك من سيول جارفة ، وفي هذه الحالة لابد لنا من القيام برحلة دائرية من مثار الى بنو عن طريق كوهات . وأخيراً جربنا حظنا في عبور النهر عند مخاضة سينوام ونجحت التجربة .

لقد وصلنا قلعة مير على والهواء هنا أشد احتباساً منه في نال ، في ميران شاه فقد كان معتدلاً ، وهو في رازماك يذكر بالجو الانجليزى خاصة وأن الجبال التي تشرف على المنطقة مكسوة بالحضرة وليست بجديية كما هو الحال في إقليم وزير ستان .

وفي اليوم التالي انتقلنا من ميران شاه الى قلعة باغ وكنا في هذا كمين ينتقل من جبال لبنان الى صحراء الجزيرة العربية . ولم ينقذنا من قبض الصحراء إلا أننا عجلنا بدخول واحة بنو الواسعة . إنك هنا تشعر بالجوا المنعش وكأنك بين أحراش النخيل في الهفوف بأقليم الحسا . ولقد ازداد حجم واحة بنو بمشروعات الري الحديثة التي أقيمت عند ملتقى نهر كورام بأحد فروعها وهو نهر طوش . ورغم كل ذلك فإن هذه الواحات على اتساعها كأنها بقعة خضراء في محيط واسع من الرمال . إن ملتقى نهر كورام وفرعه طوش منطقة حرها لافح فإذا انتقلت من هنا الى منطقة عيسى خليل فأنت في نار موقدة ، ولا ينقذك من هذا الجحيم إلا منظر قلعة باغ فهي مكان يخالط فيه جمال الطبيعة بجزيرة الطقس هنا تجدد سلاسل جبلية على شكل نصف دائرة وفي منتصف القوس تشاهد خانقا ينفرج فجأة في واد فسيح ومن هذا الخائق يبرز فهو دافق يبلغ عرضه ميلا كاملا .

وهو يمتد أمامك في اتساع متدرج حتى يحتفي وراء الأفق الجنوبي .

لا عجب ، فهذا هو نهر السند ! لقد ضاق ذرعا بالخوانق الجبلية التي كادت أن تزهق روحه فهو هنا عند قلعة باغ يبسط زراعته الى أقصى الحدود ليستشعر الحرية بعد أن ظل حبيس الخوانق والجبال مساحة طويلة من مجراه .

إن الطريق من قلعة باغ الى تانك حار قائف يذكرك بالمسافة بين واحة بنو وقلعة باغ . ولكن عندما وصلنا الى زيارات وهي على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ألفينا أنفسنا في حاجة شديدة الى التدرج بالصديريات الصوفية والالتفاف في البطاطين الصوفية الثقيلة .

انتقلنا من زيارات الى كوتا وهو هبوط لا يقل عن ألفين وخمسمائة قدم . ولذلك أحسنا كأننا انتقلنا الى جو حار مع أن كوتا على ارتفاع ٥٦٠٠ قدم عن سطح البحر . ولكن إذا قارناها بزيارات التي ترتفع ٨٠٠٠ قدم وكيلا التي ترتفع ٦٧٠٠ قدم عن سطح البحر يخيل لك أن كوتا لا تقل حرارة عن شابهه مع أن الفارق الحراري بينهما كبير جداً . ولم ندرك اعتدال جو كوتا إلا عندما هبطنا الى ممر بولان وانتقلنا منه الى سهل دوهار الفسيح الحار . ففي هذا السهل عند مواصلة السكة الحديد في سبي لاحفظنا الماء يذوب في التلابلات التي نحملها والزبد

تذوب في الأطباق أمامنا ، ذلك أن سيبى تقع على ارتفاع ٤٣٤ قدما من سطح البحر . قارن هذا بارتفاع كوتا الذى يبلغ ٥٦٠٠ قدما فوق سطح البحر . لقد كانت الجزيرة في سيبى في ذلك اليوم ١٢٩ درجة فهي نهيت في الظل . وبهذه المناسبة أروى للقارىء قصة الرجل الذى زار جهنم فوجد أحد تزلاتها ملتقاً في بطانية وهو يرتعش من البرد ، ولما سأله الزائر كيف يرتعش من البرد وهو في جهنم ، أجاب المسكين وأسنانه تصطك من شدة البرد « أنا قادم من سيبى » . وفي قول آخر « أنا قادم من مولتان » إن جو سيبى حار جاف ولذلك فهو جوف محتمل .

كان رفيقى في السند من أبناء كراتشى وقد صبرنى على بلوائى في احتمال قسوة جو سيبى بأتنا في طريقنا إلى كراتشى حيث نسيم البحر العليل على حد قول الرجل .

وعندما بلغنا كراتشى وجدت أن الجزيرة بها لا تزيد عن ١٠٤ درجة نهر نهيت بالقيام إلى الـ ١٢٩ درجة التى بلغتها حرارة سيبى ، أما درجة الرطوبة في كراتشى فقد بلغت حد التشبع ، وهذا ما لا يحتمل . ولذلك لم يسعنى إلا الفرار من رطوبة كراتشى إلى الجو الحار الجاف في بلاخستان .

تساءلت وأنا في كراتشى : هل أستطيع في هذا البلد الحار الرطب ان ألبس سترتى من الصوف الأنجليزى الثقيل استعداداً للعودة إلى لندن ؟ والواقع أنى تحمليتها . لأنى بعد مرور ثلاث عشرة ساعة من مغادرتى مطار كراتشى كنت في لندن أنعم برذاذ بارد منعش يذكرنى برذاذ باراشنبار أو بالجو الجميل عندما كنت اخترق غابات العرعر في طريقي إلى زيارات .

عندما هبطت الطائرة بمطار لندن يوم أول يوليو كانت الحرارة في الظل لا تزيد عن نصف ما كانت عليه حرارة سيبى منذ ستة أيام مضت .

لقد كان قلب الأجواء غاية الشدوذ والغرابة ، ومع ذلك فقد خرجت من كل هذه الأجواء وأنا في تمام الصحة والعافية .

وبعد هذه التجربة العنيفة في أقصى الأجواء ، أستطيع اليوم أن أقول ليس في العالم جو يرهبنى مهما اشتدت قسوته .

## ٤٢ - ملتحى طرق أربعة

قد يحيل اليك أن دخول كوتا لن يفاجئك ، ومع ذلك فإن هذا البلد يواجهك على حين غرة ، من أى السيل طرقت أبوابه ، قد تسل قبل مشاهد كوتا أنها مدينة تعج بالحركة والضجيج إذ لا يقل سكانها عن مائة ألف نفس كذلك تعرف قبل دخولك المدينة أنها مدينة عصرية يسودها الرخاء والازدهار ولكن إذا دخلت المدينة وشاهدت بنفسك ما هي عليه فإن الفرق كبير بين تلك الصورة التي تحتفظ بها في حياتك وبين الأمر الواقع .

إن وزير ستان الصغيرة تير دهشتك لكثافة سكانها وتشبههم بها مع انها منطقة صخور جرداء . فإذا ما تنقلت إلى بلوخان فلن تدهشك أرجاؤها الفسيحة مع قلة من بها من السكان فأنت متوقع ذلك قبل قدومك إليها . إن واحات بلاخستان التي تغذيها الآبار صغيرة وقليلة تعد على أصابع اليدين وأنت لتقود سيارتك في بلاخستان أميالا تلو أميال وأنت في وحدتك وليس هناك من يندو ما أنت فيه من دهشة . ولكن إذا ما انتهيت من السفر في هذه المهمة وألقيت عصا الترحال في كوتا شعرت بصدمة عنيفة تهزك هذا . أهذه كوتا ؟

في عام ١٨٣٩ اشتبكت إحدى قوات الغزو البريطانية في أولى معاركها مع الأفغانيين ، وأصيبت هذه القوات البريطانية الغازية بهزيمة منكرة فخرجت تترنح من بحر بولان وأوت إلى كوتا ، ولم تكن المدينة في ذلك الوقت تزيد عن خليط مضطرب من الأكواخ المبنية باللبن : وقد استطاع القول إن الخير جاء إلى كوتا على أيدي سانديمان عندما أنشأ مركزاً عسكرياً أمامياً للامبراطورية البريطانية في الهند عام ١٨٧٧ ، بعد أن عقد اتفاقاً مع خان ( أمير ) كبلات في العام السابق .

كذلك كوتا من المدن التي حبتها الطبيعة ، فالينابيع القلّية عند مدخل وادى

اوراك تروور المدينة بمياه الشرب ثم يستخدم الفائض في الري . وعلى مقربة من كوتا توجد مناجم الفحم .

إن أهمية كوتا لا ترجع إلى سنديمان ومركزه إلى البنايع ولا إلى مناجم الفحم . إنما السر الحقيقي في أهمية كوتا هو نفس السر في أهمية بجرام . إن كل الطرق تتجه إليها ! وكلما حاولت امبراطورية كبرى أن تضم إلى أملاكها الحافة الشرقية لهضبة إيران اتخذت لها مركزاً أساسياً للمواصلات في كوتا أو في المناطق المجاورة لها .

وكوتا اليوم ملتحق طرق أربعة : ويسير بجانب كل من الطرق الأربعة خط حديدي، فإذا ما ألقيت الخطوط الحديدية جانباً، ألقيت أمام خريطة لهذه المنطقة منذ القرن السادس قبل الميلاد أثناء حكم الامبراطورية الفارسية الأولى .

إن الطريق الشمالي الغربي يؤدي من كوتا إلى قندهار في أفغانستان أما السكة الحديدية المحاذية له فانها تنتهي عند شامان في الجانب الباكستاني من الحدود الأفغانية الباكستانية .

ومن قندهار يمكنك الانتقال الى هيرات ومن هيرات إلى فارس حيث تلتقي بنهاية الخطوط الحديدية الإيرانية في مدينة مشهد .

كذلك يمكنك الوصول الى مشهد بواسطة طريق دائري يبدأ من كوتا أو عن السكة الحديدية التي تعبر الحدود الباكستانية الإيرانية وتسير الى زاهدان ( المشهور باسم دوزداب ) ويمكنك الانتقال من زاهدان الى مشهد بالأتوبيس . وعند مفترق الطرق بين طريق زاهدان وعمر بولان في جنوب كوتا تجد لافتة كتب عليها : « ٥٨٨٧ الى لندن » ويبدو أن المسافة هنا حسبت على أساس الطريق الذي يلتقي حول جنوب غرب أفغانستان وشمال صحراء إيران ، ويستطيع السائق الجريء أن يختصر الطريق الى لندن اذا عبر الطرف الجنوبي للصحراء واتجه رأساً من زاهدان الى كرمان .

أما الطريق الجنوبي الشرقي من كوتا فيتجه نحو عمر بولان الى السند عند

سكرو حيث توجد قناطر تنقل مياه نهر السند لري الأجزاء الشمالية والشرقية من إقليم السند . وما دامت هناك لافتة تحمل رقم المسافة بين كوتا ولندن ، كان يجب أن تقام على طريق ممر بولان لافتة أخرى تحدد المسافة بين كوتا ومدن بمباي ويونا ومدارس في الهند . أن القيام برحلة من كوتا إلى لندن عن طريق زاهدان هي حلم من أحلام المستقبل . أما الرحلة من كوتا إلى مهاراشترا وهضبة الدكن والطرف الجنوبي للهند عن طريق ممر بولان فقد سجلت مراراً وتكراراً على صفحات التاريخ .

فقد سلك هذا الطريق موجات أثر موجات من المهاجرين إلى جنوب الهند من قلب العالم القديم . فالجورجاري والبلافا والسাকা كل بدوره سلك هذا الطريق منذ القدم . ويمكننا أن نعود بالذاكرة إلى فترة التي عام في سجل التاريخ . كما أن الأدلة الفيلولوجية ( المستقاة من علم أصول اللغات ) تضيف التي سنة أخرى فلا يزال في جنوب كوتا على الجانب الغربي من الحافة الشرقية لهضبة إيران جماعات من البراهدي يتكلمون لغة الدرافيد ( لغة سكان جنوب الهند ) وهؤلاء قد اختلطوا عنصرياً بالبلوخيين ( البلوشى ) الذين يتكلمون الإيرانية . هذا وأن بقاء هذه الجماعات في قلب هضبة إيران عند طرف ممر بولان ليوحى بأنه منذ القدم ، وقبل أن تطلأ أقدام المنود والآريين أرض الهند ، كان أسلاف العناصر الدرافيون التي تسكن حالياً في جنوب الهند قد انحدروا إلى شبه القارة الهندية عن طريق ممر بولان وخلفوا وراءهم تلك الجماعات التي نراها حول كوتا في وقتنا الحاضر ، حيث فضلت البقاء على الرحيل إلى الجحيم .

حقيقة أن ممر بولان هو الجحيم بعينه . وهذا هو إحساس مرافقي وسائق السيارة عندما طلبت إليهما أن يرافقاني إلى هذا الممر . لقد توسلا إلى أن أوجل هذه الرحلة المزعجة حتى وقت الغروب ، ولكن لو قبلت ذلك لفوت على نفسي من أيا رحلتى إلى ممر بولان . كان غرضي أن أشاهد هذا المصب الرئيسي طالما لعب دوراً هاماً في تاريخ العالم ، وقد إزددت لهفة على مشاهدته عند ما رأيت بعض صور مثيرة للخيال على أسوار أحد مباني بشاور . لقد شاهدت في هذه النقوش الأثرية التي تسجل تاريخ أول حرب إنجليزية أفغانية صفيو ظلية من الجند

والبنادق والجمال والحيل والبغال وهي تسير في خط واحد بمنظم فوق منحدر  
جبل وهر تكاد جدره تنتصب قائمة عمودياً وعلى قمة الصخرة يقف رجال القبائل  
الأفغانية وهم يصوبون بنادقهم نحو الغزاة ، والجنود المنوود الأوروبيون يحاولون  
تسليق الصخر ليردوا على نيران رجال القبائل المنتصبين عليهم .

وما أن رأيت هذه الصورة حتى بادرت بالذهاب إلى مكان المعركة لأشاهد  
بنفسي وكان على بعد أميال مني .

تقدمت بنا السيارة يبطء شديد فوق الهضبة ولم أر أمامي ما يشير إلى وجود  
مكان المعركة حتى كدت أن أستشعر الفشل . وفجأة رأيت سيارة بريد كوتا تنحدر  
هابطة إلى نفق ، وما أن وصلنا كولبور حتى غاص الطريق وغاصت معه السكة  
الحديد فجأة وأطبقت عليهما أبواب الجحيم .

هنا أدركت حقيقة الموقف وكنت تماماً كمن شهد الواقعة التاريخية بين  
البريطانيين والأفغان . فالصخرة العمودية قائمة والحاتق المتدرج قائم والمنحدر  
الشديد لا يزال كما هو . وكانت للسكة الحديد القائمة في هذه المنطقة قطعة رائعة  
من فن الهندسة لا يعدلها إلا السكة الحديد التي تمر عبر خير قادمة من جرور ثم  
تتجه ثانية نحو طور خام على الحدود الباكستانية الأفغانية . إن عمر خير يشبه  
سنام الجمل ، وهناك من لاندی خانه تستمع بمنظر رائع لجبال نورستان التي  
تكلل هامتها بالثلوج . أما عمر خوجاك على الطريق الشمالي الغربي من كوتا إلى  
شامان وقندهار فهو يشبه السقف الهرمي ( الجملون ) ولو أنك صعدت إلى قمته  
لأشرفت على أكثر من نصف أفغانستان . وعلى النقيض من هذين الممرين تجد  
عمر بولان ، فبدلاً من أن يكون محدياً ( كسنام الجمل في خير أو الجملون في  
خوجاك ) فهو مقصر وهو فجوة تنحدر إليها من ارتفاع ٥٦٠٠ قدم فوق سطح  
المجر إلى ارتفاع ٤٣٤ قدماً فقط .

أود أن أصور مدى هذا المنحدر الشديد فأقول أنه في أثناء عبوره شاهدنا  
قطاري بضاعة يصعدان بالممر أحدهما خلف الآخر . لم يكن القطاران طويلين  
ولا كثيرى العربات ولكن كان يدفع كل منهما إلى الأمام قطاراً من الجانب

بالإضافة إلى القاطرة الأمامية ، شيء عجيب هذا ، ثلاث قاطرات تبحر قطاراً ، هذا ما لم نسمع به ولم نره من قبل ، حتى ولا في سكة حديد يرو الجنوبية التي تصل إلى ارتفاع ١٦ ألف قدم . في المسافة بين كولبوروماش يطبق عمر بولان فسكه على المسافر ويلوكة لوكا بين هذين الفسكين المائلين . فإذا جاوزت ماشي فاته يداعبك متاعبة القط للفار ، ذلك وكأته يهيء مده طريق الخلاص ، وما أن تؤخذ بالحديعة حتى يعود ثانية إلى الإطباق عليك وكأته في هذه المرة يزدردك أزدرداً .

تنحسر الجوانب الصخرية الوعرة قليلاً في منتصف الطريق حيث يوجد كوبرى يبي ناني ، ولكن إذا ما وقفت فوق الكوبرى وتطلعت حولك وجدت فيها قحلا موحشاً على مدى البصر .

أخيراً تتراخى فكا الممر وكأته قد أجهد من طول ما قهرقاه والطبقة . هناك يتسع الوادي تدريجياً ويتناقض ارتفاع الصخور الجانبية وأخيراً يعود الطريق إلى استوائه العادي وكأن الطبيعة هنا تعلن أنها الممر ، وما تلبث أن ترى لافتة ضخمة كتب عليها « نهاية عمر بولان » وهنا تكون الشمس قد مالّت نحو المغرب وتحول ضوء النهار إلى شفق . لقد صدق السائق في قوله فنحن لم نبلغ نهاية الممر إلا عند الشفق ، ونحن الآن أمام داهار التي كانت مشق (لخان لا مير) ، كبلات فيما مضى .

وهكذا كانت رحلتى إلى عمر بولان والسير مسافة ستين ميلاً في طرقات الجحيم .

إن الطريق الرابع الذى يتفرع من كوتا ، فيتجه شرقاً نحو حوض السند . ولهذا الطريق طريقان جانبيان فهناك طريق المرتفعات الذى يمر بغابات العرعر إلى زيارات ثم واحة لورا لاى ثم يصل السند عند ديرا غلزي خان . وهذا الطريق يمر بنهرى السند وسيناب ويصل إلى مرلتان .

وهناك طريق منخفض من كوتا إلى حصن سانديمان وهذا الطريق أكثر سهولة من الأول وإن كان أطول منه .

وإن المسافر الفطن إذا أراد الانتقال من كوتا الى السند ، عليه ان يختار طريقاً وسطاً ، فيستطيع أن يتجنب الصعود المرهق الى زيارات ، بأن يبدأ أولاً بالسير في الطريق المنخفض مسافة ثم ينتقل الى وادى لورالاي .

عندما قاربت كوتا قادماً من طريق وانا عبرت الطريق المنخفض عند حصن سانديمان ثم اتبعت الطريق المرتفع بضعة أميال شرق مدينة لوزالاي . وقد شعرت برغبة شديدة للانتقال عن طريق مظفر جار الى الشاطئ الشرقي للسند والتطلع نحو ديرا غازى خان .

وكم تحرقت شوقاً في ذلك اليوم للاتجاه نحو الشرق والوصول الى جبال سليمان عند حسن مونزو ، ومشاهدة مياه السند قرب منطقة جار .

وفي كل رحلة يقوم بها الانسان يحقق بعض أهدافه ويعجز عن تحقيق البعض الآخر وما دمت قد عجزت عن مواصلة الطريق على الطبيعة بين مولتان وكوتا فلنكتفى بدراستها على الخريطة مع ما بين الخريطة والمشاهدة من بوق شاسع .

إن هذا الطريق الذى يتجه من كوتا نحو الشرق ذو أهمية خاصة للمؤرخ لأنه يدعم أقوال أولئك الذين قرروا أن سكيلاس الكارياندى عامل دارا امبراطور الفرس ، سلكه للوصول الى السند .

كانت مهمة سكيلاس أن يكتشف مصب النهر فى المحيط ، ومن ثم يكتشف طريقاً بحرياً من دلتا السند الى أى ميناء مصرى على البحر الأحمر وكان على سكيلاس أن يبدأ رحلته من مدينة تدعى كاسبايروس على نهر السند وهذا هو الاسم الذى أطلقه عليها المؤرخ الأغريقى هيكاتايوس ويبدو أن هذا الاسم الأغريقى هو المقابل للاسم السنسكوتى هو « كاسبايايورا » وهو الاسم الأصلى لمدينة مولتان الحالية طبعاً للرواية الهندية المتواترة . ومن المحتمل أن التل الذى تقوم عليه مدينة مولتان كان يغطيه نهر شيناب أو نهر رافى فى أيام سكيلاس أو أنه كان يغطيه ملتقى النهرين وذلك لما نعلمه من أن النهرين يفران مجراهما على ممر الزمن ، وتمنياً مع ما قاله المؤرخ الأغريقى هيكاتايوس الذى مر ذكره فإن

كاسيايروس كانت شاطئاً أوتتوا جليلاً تعيش عليه بعض القبائل الرحل من  
أواسط آسيا . فإذا تمسكنا مع هيرودوت فإنها تقع في إقليم باكثيا أو باكتوكي  
بلاد الياختو أو الياختون ، وهي التي اشتهرت بأنها ساتراية ( ولاية ) أراكوزيا  
الناطقة لامبراطورية فارس .

هل ياترى كانت أراكوزيا أو بلاد الياختو تمتد من قندهار إلى كوتا  
ولورالاي إلى السند عند ديرا غازي خان ، برأس كوبري في شرق السند عند  
ملتقى أنهار ايسنجاب بعضها أولاً ثم مع نهر السند .

كانت هذه الآراء الخاصة بالجغرافيا الإقليمية في القرن السادس قبل الميلاد  
تدور في رأسي ، وظللت أتجول في العالم قديماً أسأل عن يدور حولي حتى وصلت  
سيارتنا إلى مدينة لورالاي ، ووجدتني في مواجهة المندوب السياسي الباكستاني  
وقد ألقبت عليه التحية .

هل دار بخلك يوما أن ترتاب في بطولة الإنسان ؟ إن كان الأمر كذلك فملكك أن تولى وجهك شطر الجنوب من كوتا إلى وشط بلوخيستان وأنا الضمين بأنك لن تصل خوزدار حتى تكون قد تبذرت شكوكك .

تقع خوزدار على بعد مائتي ميل جنوب كوتا ومائتين وأربعين ميلا شمال كراتشي . أن الطريق من كوتا إلى كراتشي عبر بلوخيستان في غرب المنطقة الجبلية إثارة للاهتمام من طريق السكة الحديد من مواصلة سيبي عبر إقليم السند . ومع ذلك فكل من استشرتهم قبل بدء الرحلة عن لهم دارية بالمساندة في هذه الجهات ، قرروا أن الطريق جنوب جزر دار صعب الاجتياز . كانت هناك فكرة يوماً ما لرصف الطريق بين كراتشي وكوتا ولو تم ذلك لأصبحت خوزدار وسوارب وكيلان فجأة مراکز كبرى على طريق من أهم الطرق العالمية . أما في الوقت الحاضر فقد حذرني أولئك الذين استشرتهم وكان تحذيرهم لي بالإجماع ولذلك فقدت عدلت عن مشروعي الأول واكتفيت بالقيام برحلة بين كوتا وخوزدار . وبينما كنا في سيرتنا نحو الجنوب قابلتنا سيارتا نقل قادمتان بحمولة من الصوف من ناحية خوزدار .

لقد فضل تجار الصوف إرسال بضاعتهم شمالاً إلى محطة سكة حديد ماستونج على أن تشحن هناك بالسكة الحديد إلى كراتشي . وهذا الطريق الملتوي يباغ ثلاثة أميال طول الطريق العادي .

ولكن أثناء رحلتنا من كراتشي إلى خوزدار غرست إطارات سيارتنا في الرمال ولم نتخلص منها إلا بكل صعوبة ومن هنا عرفت السر في تجنب الطريق القصير . لقد أحججت عن القيام برحلتي رأساً إلى خوزدار ولكن لو اتفق يوماً إن

تم تعييد المسائي ميل التي تعوق هذا الطريق ، إذا لما ترددت لحظة واحدة في القيام برحلة من لندن إلى كراتشي عن هذا الطريق .

لقد خرجت عن موضوعي الأصلي وهو أن بلو خستان تقوم دليلاً حياً على بطولة الإنسان .

إذا سافرت من كوتا جنوباً شعرت بوحشة تتضاءل بجانبها تلك الوحشة التي تحسها عندما تستقر في ذلك التيه الذي يلي كوتا من جهة الشرق . أن المسافة من كوتا إلى خوزدار تبلغ ١٩٠ ميلاً وليس بين المدينتين إلا أربع واحات فقط ، وهي ما ستونج وكيلات وسوارب وباغ بانا . « بلو خستان ، كيلات » لقد نقشت الأسمان في ذاكرتي نقشاً منذ أن كنت صبيّاً أحاول أن أحفظ عن ظهر قلب أسماء بلاد العالم وعواصمها .

أن حانية ( إماره ) كيلات كانت بالفعل أمبراطورية قائمة بنفسها قبل أن تقطع بريطانيا أجزاءها المتاخمة لأفغانستان ثم تنقل سيادتها على ضوء الأمانة إلى باكستان . ولقد قامت باكستان بدورها بدماج كل الولايات المستقلة التي كانت تقوم سابقاً في بلو خستان بما فيها ولاية كيلات .

لقد كان لوية كيلات تاريخ مجيد أما مدينة كيلات فلا تزيد عن حصن وزوج من البناءات التي تزود بالماء أربعة آلاف من السكان ، مع فضلة من هذا الماء لرى بعض بساتين الفاكهة . أن ينابيع باغ بانا أشد غزارة وهي بذلك تبعث الحياة فيمن يقيم حولها من إنسان وحيوان ونبات ولا عيش في هذه البقعة من العالم إلا حيث توجد الآبار .

ان موارد الماء فيما بين كوتا وخوزدار نادرة ، والطبيعة هنا تبلغ أقصى حدود الشح ، أنك تسافر أميالاً تلو أميال في أرض قفر وتهبط وادياً وترقى مرتفعات دون أن يطيب المنظر أمامك بشيء من الخضرة أو ينبع من الماء ان هذه الوحشة الرهيبة لا تخلو من جمال ، ولكن هذه الجبال ممتعة للروح وحرمان للجسد . ورغم قسوة الطبيعة فقد استطاع الإنسان أن يكتسب قوته من هذه الصخور

الجابة المناسبة ، لا بل أنه استطاع أن يستمر منها رزقة حتى قبل ان يزغ  
فجر المدينة .

ان الغريب عن البلاد يرى وسط بلوستان جربا لارجاء فيه ، ولكن هذه  
البلاد كانت طوال آلاف السنين تنتج القمح الطيب ولا تزال تنتج من الصوف أحسنه .  
ولكن كيف تعيش قطعان الأغنام في هذا الفقر ! هذا سر لم أدركه أنك  
تراها تسرح وتمرح وتسير طيبة خلف زعيمها وهو يتقدمها عبر القفار فتأتي  
تاجله علي ما يصادفها من نبت وتنب الأرض سيرا حتى تبلغ مورد الماء وكثيراً  
ما تراها متراحة حول غدير به ماء وهي تحس إحساساً غريزياً بأنها معرضة  
للهلاك جوعاً وعطشاً ، ورغم كل ذلك فان صوفها من نوع ممتاز يشد عليه الطلب  
في كراتشي وبدر أرباحاً وفيرة على تجار خوزدار .

وسر آخر هو أن وسط بلوستان تسمى إلى أن تكون مخزناً للفلال كما  
هي مورد للصوف أن ندرة الماء تجعل من الصعب استخدام زراعة محصول  
كالقمح إذ يحتاج إلى ماء وفير والغريب أن حقول القمح يلوستان الوسطى  
تعتمد علي ماء قطرات المطر التي تجود بها سماء بلوستان . وإنك لترى بين الفينة  
والفينة خزانا قد أقيم وأخذ القوم ينتظرون في صبر سقط القليل من المطر .

وقد يظل الفلاح في انتظار المطر سنوات قبل أن يتحقق أمله في الحصول  
على غلة الأرض التي أعدها للقمح .

ولكني مررت بهذه البقاع في الأسبوع الرابع من يونيو ، وكما كانت دهشتي  
عندما شاهدت حقول القمح وقد امتدت كبساط ذهبي فوق صفحة الفقر ! ان  
الزراع يحصدون القمح سنبله سنبله ولكن محصوله في النهاية كبير من صنف ممتاز  
كالصوف الذي يصدرونه إلى كراتشي . لقد أكلت خبزاً عن عجيب هذا القمح وما  
أتصور أنني ذقت في حياتي أطعم من هذا الحبز .

ان سكان بلوستان اليوم أبطال حقيقة في اعتصار خيرات الطبيعة ، ومع  
ذلك فهم في البطولة أقرام بجانب أسلافهم الذين كانوا عمالقة في هذا السيل لقد

كانت في بلوخيستان سدود ضخمة لتخزين الماء لا تزال آثارها باقية حتى اليوم ،  
وهذه السدود الوثنية التي هي تاج عصر ما قبل التاريخ كتل ضخمة من البناء  
وتشهد بما كان عليه بناتها من حول وطول .

أنظر أيضاً إلى اقتصاديات بلوخيستان اليوم . أنها جهود مشكورة لقوم  
يعيشون في الفقر فينتزعوا منه شمرات الصوف وسنابل القمح . ولكن ما بالك  
باقتصاديات أسلافهم في العصر القديم وتلك آثارهم تدلنا على اقتصاد راق متقدم  
في ذلك العهد العريق في القدم .

ليس من البطولة في شيء أن تعتمد إلى نهر جار فتقيم عليه السدود  
والخزانات لتتحكم في مائه فتستقي وتروي الزرع ، وإنما البطولة الحقة تتمثل  
في أولئك الرجال القدامى الذين أقاموا حضارة علي ما تقدمه الطبيعة بين الشح  
من ذلك القليل من ماء المطر .

## ٤٤ - العودة بالطائرة إلى مسقط رأسى

لقد ظلت أكثر من أربعة أشهر أتجول في الأقليم الأوسط من العالم القديم ، حيث أجد هناك كثير من حوادث التاريخ الكبرى . وأنا اليوم أعود إلى طرف ذلك العالم المعمور ( بريطانيا ) . أن نشأتى في هذا البلد هى التى جعلتنى بريطانيا ولست يابانيا ولقد أخذت لعودتى نفائة قادمة من استراليا فى طريقها إلى لندن أنى أعود اليوم إلى نولا ( المعروف أن الرومان كانوا يطلقون هذا الإسم على إحدى جزر شتلند وكانوا يعتبرونها نهاية العالم المتسدين وهى هنا رمز إلى جزيرة بريطانيا ) .

فى زيارتى السابقة لأفغانستان نقلتنى الطائرة غربا من كراتشى إلى العراق فيروت و لكن هذا كان فى عام ١٩٥٧ قبل ثورة العراق الأخيرة أما فى ١٩٦٠ فإن الطائرات البريطانية والاسترالية تتجنب « جو العراق » فهى أما ان تتجه شمالا فوق إيران أو تركيا أو تتجه جنوباً فوق السعودية والجمهورية العربية المتحدة وكان من حسن طالعى أن طائرتى سوف تقلنى عن الطريق الجنوبى أى فوق السعودية والجمهورية العربية المتحدة . وإذا لم يكتشف الأجواء العليا اضطراب فسوف نستمتع بمناظر أخرى هامة كجبال سيناء وقناة السويس والنيل والأهرام .

كانت الرحلة الأولى فى نظرنا ١٠٥٥ ميلا من كراتشى إلى البحرين فوق القرن الجنوبى الشرقى لجزيرة العرب وقد قطعنا المسافة فى أقل من ساعتين أما المرحلة الثانية فهى ١٢٢٥ ميلا من البحرين إلى القاهرة ، عبر أراضى السعودية وفى هذه المرة أخذت أراقب الطريق مراقبة دقيقة كي التى نظرة على سكة حديد الحجاز لأن رؤياها سوف تكون إنذار لى بأن خليج العقبة على مقربة منى . وبعد برهة وجيزة وجدتتى فوق خليج العقبة . كان على يميننا الشاطئ الرملى الذى يفصل بين العقبة الأردنية وإيلات الإسرائيلية وسرحت يصرى شمال خليج

العقبة فبدت لى آثار الأخدود الشرقى الذى يمتد إلى البحر الميت . وتلفت يسرة  
فاذا بصرى يقع على جيل سيناء . ومن وراء جيل سيناء ظهرت قناة السويس  
وكأنها خيط يربط خليج السويس بالبحيرات المرة وأخيراً أصبحنا فوق  
مطار القاهرة .

جاءت المرحلة الثالثة وهى أطول المراحل ، هانحن فوق دلتا النيل وهى  
من أكثر جهات العالم ازدحاماً بالسكان وأكثرها زراعة . طالم قبل ذلك ولكن  
ليس من ممتع كمن رأى . أنا لم أدرك من الوصف إلا جانباً من الحقيقة . ولقد  
كانت هذه اللوحة خير من قراءة عدد من المجلدات : سرنا فوق الأهرام وكان  
كلا منها تنو صغير لا يزيد طوله عن درجة . ومن بعد الأهرام جاء فرع دمياط  
ثم فرع رشيد .

ها قد جاوزنا الجمهورية العربية المتحدة وبدأنا نخلق فوق البحر الأبيض  
ثم وصلنا روما .

لم يبق إلا المرحلة الأخيرة من رحلتنا بين إيطاليا وبريطانيا . لقد ظهرت  
جبال الألب وهى صورة مصغرة لجبال هندوكوش وجبال هيمالايا . وأخيراً  
وصلنا لندن .





كتب ثقافية

يصدر قريبا

# البوتقة

للكاتب الأمريكي آرثر ميلر

ترجمة

عبد المنعم الحفنى

الثنى قرشا

العدد الخامس

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبید - روض الفرج - القاهرة

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina

0246343



مكتبة الإسكندرية